أندريه جيد

سيمفونية الرعاة
ومحاولة حب

قصتان

ترجمة

د.نظمي لوقا

الكتاب: سيمفونية الرعاة ومحاولة حب (قصتان)

الكاتب: أندريه جيد

ترجمة: د.نظمي لوقا

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

جيد ، أندريه

سيمفونية الرعاة ومحاولة حب (قصتان) / أندريه جيد, ترجمة: د.نظمي لوقا – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٣٧٨ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٣٦٣٣ / ٢٠٢١

سيمفونية الرعاة
ومحاولة حب

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

أندريه جيد والقصة النفسية

ولد اندريه جيد بباريس في عام ١٨٦٩، وتوفي في عام ١٩٥١، وكانت "إلاغذية إلارضية" أولى قصصه، ونشرت في عام ١٨٩٧، وسنه ٢٨ عاماً، وتلاها نشر "بروميدته" في عام ١٨٩٩ "اللاأخلاقي" في عام ١٩٠٢، و"عودة الابن الضال"، في عام ١٩٠٧، و"الباب الضيق" في عام ١٩٠٩، و"ايزابيل" في عام ١٩١١، و"كهوف الفاتيكان" في عام ١٩١٤، و"السيمفونية الرعوية" في عام ١٩١٩، و"المزيفون" في عام ١٩٢٦، و"مدرسة النساء" في عام ١٩٢٩، و"الأغذية الجديدة" في عام ١٩٣٥، و"تيزيه" في عام ١٩٤٦ ..

ونشرت له أيضاً مجموعة مقالات، ومذكرات، وكتابات سياسية عن الاتحاد السوفييتي والكونغو، دافع فيها عن الحريات. وله مسرحيات منها "شاول" التي كتبها عام ١٨٩٧، ونشرت عام ١٩٠٣، و"الملك كاندول" في عام ١٩٠٥، و"أوديب" في عام ١٩٣٢ ..

***

واندريه جيد أحد قطبين بارزين للقصة النفسية في فرنسا، وأول هذين القطبين هو "مارسيل بروست" (١٨٧١ – ١٩٢٢) صاحب العمل الروائي الضخم الشهير "البحث عن الزمن الضائع" ..

وقد تميز "بروست" بغوصه في ماضيه، وتصوير هذا الماضي نابضاً

حياً، كي يستعيده ويعيش فيه منغلقاً عن حاضره.

أما "اندريه جيد" فيناضل –على العكس– للتخلص من ماضيه. وجميع أعماله تدور حول محور مشكلة واحدة: كيف ينبغي لنا أن نعيش؟ وماهي القيم الجديدة التي نعيش بها ولها؟

وكان هذا بعينه هو السؤال الذي يوجهه الجيل الجديد في فرنسا–بل في أوروبا كلها– لنفسه غداة الأزمة التي قلبت الحضارة في سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) وهذا جانب كبير من السر في النفوذ الكبير الذي تمتعت به كتابات "اندريه جيد".

ولا يمكننا أن نعرف طبيعة هذا النفوذ الكبير إلا إذا عرفنا مزاجه النفسي وما طرأ عليه من تطور ..

ولد "اندريه جيد" لأسرة من فقهاء القانون البروتستنت، وتولت تربيته أمه المعروفة بصرامتها، ولذا طبعته هذه النشأة على الاهتمام طيلة حياته بالمسائل الأخلاقية. ثم اقتضت دواعي الصحة أن يقيم فترة في الجزائر، فإذا به يتحرر هناك فجأة من هذا المناخ المصطنع، ويكتشف طبيعته الحقيقية، وهي الشهوة الحسية التي لا حد لها، ولذا سعى إلى هدم كل الضوابط التي تقهر المرء، من الدين إلى الأخلاق، بيد أنه احتفظ مع هذا –ويا للتناقض!– بالحنين إلى النقاء والطهر، والأمل في أن يتمكن يوماً ما من التوصل لمصالحة بين "السماء والجحيم" أو بين محبة الله ومحبة المخلوقات.

وأكسبته قراءة "دستويفسكي"، واكتشافه نظريات "فرويد" في

التحليل النفسي تدعيماً لملكة النقد لديه، فأعلن أن حقيقتنا تكمن في تلك الغرائز التي تكبحها التربية وتكبتها في أعمق أغوارنا، فإن لم تجد متنفساً لها سممت منابع الحكم العقلي وهكذا تتحول الأخلاقيات الظاهرية إلى نفاق ورياء .. ولذا نادي بالاستجابة الصريحة لدوافعنا الحيوية، ولو أدى ذلك إلى الفضيحة! ويعتقد أنه ربما ظهرت في هذا الإطار الصريح شعلة عبقرية.

هو إذن ضد الآنقياد للأخلاقيات الشائعة. بل هو ضد كل انقياد من جانب الفرد للتيار العام انقياداً أعمى. ولكنه مع هذا احتفظ في تكوينه النفسي بتيار متدين، وهذا هو السر في معظم أعماله لاستشهاده في كثير من المواضع بالآنجيل.

وشخصيات رواياته يتنازعها هذان التياران: تيار التحرر الفردي المتمرد على القوالب، وتيار الدين المسيحي، فكيف لا تكون قصصه من النوع النفسي الذي يصور حيرة الآنسان وصراع هذين التيارين فيه؟

***

وفي هذه القصة: "السيمفونية الرعوية" يدور الصراع بين الحب الحسي وبين المحبة المسيحية الروحية، وما تمليه من إحسان ورحمة ..

وأين يدور هذا الصراع؟

يدور في نفس قس بروتستنتي شديد التدين، تعرض له الغواية في شخص صبية عمياء شبه خرساء يتيمة، هو الذي علمها الكلام والقراءة، وثقفها. إنها أشبه "ببجماليون" أخرى كالتي تصورها "برنارد شو". إنه هو

الذي حولها من خامة غفل لا معرفة لها ولا إحساس بالحياة، إلى كائن شديد الحساسية، يجيد الموسيقى، وتكشفت عن جمال فائق.

وهكذا تسربت الغواية ونما الحب بينهما كأقوى ما يكون.

ولكن الفتاة لم تعرف الصراع الذي عرفه القس الكهل، الذي تسلل الحب الحسي إليه تحت قناع الرحمة المسيحية والمسئولية الدينية.

***

صورة بارعة من أدب "اندريه جيد"، تقدمها هذه السيمفونية الرعوية، بأسلوبها الموسيقى، وإتقانها الأسطيطيقي الذي اشتهر به هذا الكاتب الذي عبد الجمال وعاش للفن، ولم يكن مضطراً للتكسب بفنه.

وهو يستعير للعنوان هذا الاسم المشهور في عالم الموسيقى، ويتلاعب بمدلول كلمة الراعي باللغة الفرنسية، حيث تدل على رعاة الأغنام في الخلوات، وعلى القسوس البروتستنت.

وما أكثر ما في الرواية من ارتياد الخلوات، ومن موسيقى الطبيعة. وبطلها ذلك "الراعي" الديني أيضاً ..

وإننا لنعرف أنفسنا حين نطالع القصص النفسي، ونرى عناصر تكويننا في صور الآخرين .

د. نظمي لوقا

سيمفونية الرعاة

الكراسة الأولى

١٠ فبراير – ١٨٨٩

الثلج الذي لم يكف عن التساقط منذ ثلاثة أيام يمد جميع الطرق، لذا لم أتمكن من التوجه إلى ناحية "ر .. "، حيث تعودت منذ خمس عشرة سنة أن أقيم الشعائر الدينية مرتين في كل شهر. ولم يتجمع في هذا الصباح الاثلاثون مؤمناً فقط في بيعة "لابريفين".

وسأستغل الفراغ الذي يفرضه على هذا الاحتباس القسري كي أعود إلى الوراء وأروي هنا كيف انقدت إلى العناية بأمر "جر تريد".

وقد عزمت على أن أدون في هذه الصفحات كل ما يتعلق بتكون ونمو وتطور هذه النفس التقية، التي يلوح لي أنني لم أخرجها من ظلمات الليل إلا للعبادة والمحبة. تبارك المولى القدير الذي عهد إلى بهذه المهمة.

***

حدث منذ سنتين وستة أشهر أنني كنت عائدا من قرية شو- دى - فون، وإذا بصبية صغيرة لم أكن أعرفها تأتي بكل سرعة كي تذهب بي إلى مكان يبعد مقدار سبعة كيلومترات عن ذلك الموضع، كي أقف على فراش عجوز مسكينة تجود بأنفاسها الأخيرة.

ولم يكن الحصان قد حل من المركبة، فأركبت الصغيرة في العربة، بعد أن تزودت بفانوس، لأنني قدرت أنه لن يتيسر لي العودة قبل هبوط الليل.

وكنت أحسبني أعرف تمام المعرفة جميع أنحاء ابروشيتى، بيد أن الصغيرة مضت بي -بعد أن اجتزنا ضيعة "لاسودرى "- في طريق لم يكن لي به قبل ذلك الحين سابق عهد. ولكني -مع هذا- عرفت، على مسافة كيلومترين من هناك - بحيرة صغيرة على اليسار، كنت وأنا صغير أذهب للتزحلق فوقها حين تتجمد، في بعض الأحيان. ولم أكن رأيتها منذ خمس عشرة سنة، الآن الواجبات الرعوية لم تدعني إلى الذهاب في هذا الاتجاه. ولذا لم يكن بمقدوري أن أحدد موضعها، وقد كففت عن التفكير فيها ذلك الأمد الطويل، حتى لقد خيل إلى عندما رأيتها في اهابها الذهبي والوردي الذي ألقاه المساء عليها، انني لم اشاهدها من قبل إلا فيما يراه الحالم.

وكان الطريق يساير مجرى الماء الذي يتدفق من هذه البحيرة الصغيرة، ويشق طرف الغابة، ثم يحاذي منطقة يكثر فيها الطحلب. ولم أكن - عن يقين- أتيت من قبل إلى هذه البقعة.

وجنحت الشمس للغروب، وطفقنا نسير منذ وقت طويل في الظل، عندما أشارت مرشدتي الصغيرة بأصبعها إلى كوخ على منحدر رابية، يظنه الناظر غير مأهول لولا ذلك الخيط الرفيع من الدخان الذي يتصاعد منه ضاربا إلى الزرقة في الظل، ثم مصطبغاً بالشقرة وسط اللون الذهبي الذي تحفل به صفحة السماء.

وربطت الحصان إلى شجرة تفاح قريبة، ثم لحقت بالصغيرة في الحجرة المعتمة التي قضت فيها العجوز نحبها منذ قليل.

وأحسست لجهامة المنظر، وسكون اللحظة وخطورتها رعدة تسري في جسدي. وكانت ثمة امرأة لم تزل في مرحلة الشباب جاثية بقرب الفراش. وتولت الصغيرة التي كنت حسبتها حفيدة المتوفاة– ولكنها لم تكن إلا خادمتها – إشعال شمعة كثيرة الدخان، ثم وقفت ساكنة عند أسفل الفراش. وكنت قد حاولت طوال الطريق أن أجاذبها أطراف الحديث، بيد أني لم أستطع أن أنتزع منها أربع كلمات.

ونهضت المرأة الراكعة. ولم تكن قريبة للمتوفاة، كما ظننت الوهلة الأولى، بل جارة لها، وصديقة كانت الخادمة قد توجهت لاستدعائها عندما تبينت أن قوى سيدتها وهنت، فتطوعت للسهر على الجثمان. وقالت لي ان العجوز لفظت أنفاسها بغير ألم أو معاناة. واتفقنا معا على الترتيبات التي تتخذ للدفن، ولطقوس الجنازة. وكما هو الحال في كثير من الأحيان في ذلك الأقليم النائي، كان على أن أقرر كل شيء.

وأعترف أنني أحسست بشيء من الحرج أن أترك هذا البيت –على ما هو ظاهر من فاقته– في عهدة هذه الجارة وحدها، بالإضافة إلى هذه الخادمة الطفلة. بيد أنه لم يبد لي محتملا على الإطلاق أن يكون في أحد زوايا هذا المسكن الحقير كنز مخبوء .. ثم ماذا كنت عسياً أن أصنع؟ ومع هذا سألت هل للعجوز وارث؟

وعندئذ تناولت الجارة الشمعة، واتجهت بها صوب ركن المدفأة فاستطعت أن أتبين كائنا غير واضح المعالم جاثيا عند الكانون، كان يبدو أنه نائم، وقد غطي شعره الكثيف وجهه فأخفاه تماما على وجه التقريب.

وقالت الجارة:

– هذه الفتاة العمياء، قريبتها فيما تقول الخادمة، وهي كل ما تبقى من الأسرة، فيما يبدو .. وينبغي إيداعها الملجأ، فلست أتخيل ما يمكن أن يصير اليه أمرها بغير هذا التدبير.

وغاظني أن أسمع الجارة تقضي في مصير الفتاة على مسمع منها، وأقلقني ذلك الأسى الذي يمكن أن تحدثه لديها هذه الأقوال الجافية القاسية. فقلت بصوت خفيض، كي أدعو الجارة على الأقل إلى خفض صوتها:

– لا توقظيها.

– أوه! لا أعتقد أنها نائمة، بل هي بلهاء، لا تتكلم، ولا تفقه شيئا من كل ما يقال .. ومنذ حللت في هذا الصباح بهذه الحجرة لم تكد تتحرك من وضعها هذا. وقد حسبتها في البداية صماء، ولكن الخادمة تزعم أنها ليست صماء، بل إن صمم العجوز الراحلة جعلها لا توجه اليها الكلام اطلاقا، ولا إلى أي كائن كان، فلم تفتح فمها منذ أمد طويل إلا لتأكل أو تشرب.

– وما عمرها؟

– نحو خمس عشرة سنة، فيما أظن! وإن كنت لا أعلم عنها على وجه التحقيق أكثر مما تعرفه أنت ..

ولم يخطر ببالي على الفور أن أتولى العناية بنفسي بتلك المسكينة المنقطعة،

ولكن بعد أن صليت، أو على الأصح أثناء الصلاة التي قمت بها وأنا راكع فيما بين الجارة والخادمة الصغيرة الراكعتين عند رأس الفراش، بدا لي أن الله وضع في طريقي هذا الالتزام، وأنه ليس في وسعي أن أنكل عنه من غير أن ألحق بنفسي وصمة الجبن.

ولما نهضت من ركوعي، كنت قد اتخذت قراري باصطحاب هذه الطفلة معي في هذا المساء نفسه، مع أني لم أكن قد سألت نفسي ماذا عسيت أن أصنع بها بعد هذا، ولا إلى من أعهد بها؟

وظللت بضع لحظات أتأمل وجه العجوز النائم، التي بدا فمها الأدرد المكشكش وكأنه كيس نقود زم خيوطه صاحبه البخيل، بحيث لا يند عنه شيء. ثم التفت صوب الفتاة العمياء، وأفضيت إلى الجارة بما في نيتي، فقالت:

– يحسن ألا تكون هذه الفتاة هنا غداً، عندما يحضرون لرفع الجثمان.

ولم تزد على هذا.

وما أكثر الأشياء التي كان من الممكن أداؤها بسهولة، لولا تدخل البشر باعتراضاتهم الوهمية التي يتلذذون بابتداعها. وكم منعنا منذ الطفولة من صنع هذا الشيء أو ذاك الشيء الذي كنا نريد الإقدام عليه، لا لشيء إلا لأننا كنا نسمع من حولنا هذه العبارة تتردد باستمرار:

– لن يستطيع أن يصنع هذا ..

وانقادت العمياء لنا، وكأنها كتلة لا إرادة لها.

وكانت ملامح وجهها منتظمة سوية، على قسط حسن من الجمال، بيد أنه لا تعبير فيها على الإطلاق. وكنت قد أخذت غطاء من فوق كومة القش التي كانت تضطجع فوقها عادة في ركن من الحجرة، تحت السلم الداخلي المفضي إلى مخزن الغلال.

وأبدت الجارة مجاملة وعوناً، فساعدتني على لفها بالغطاء بعناية، ولأن الليل الصحو الخالي من الغيوم كان شديد الرطوبة. وهكذا انطلقت بالعربة بعد أن أشعلت فانوس ها، وتلك اللفافة من اللحم البشرى متكورة مستندة إلى جنبي، لا روح فيها، فلم أكن لأحس فيها حياة لولا ما تسرب منها إلى جنبي من حرارة غامضة.

وطفقت طوال الطريق أتساءل:

– أنائمة هي؟ وأي نوم أسود عسى أن يكون هذا.. وهل ثمة فرق في هذه الحالة بين اليقظة والمنام؟ إن الروح التي تسكن هذا الجسد المعتم تنتظر ولا شك، في قلق، أن يمسها في النهاية شعاع من نعمتك وفضلك وإحسانك يا رب! فهل لك يا ربي أن تجعل محبتي تباعد بينها وبين ظلمة ليلها الرهيبة!

***

ويمنعني حرصي الشديد على تحري الحقيقة والصدق أن أكتم أمر ذلك اللقاء الغاضب السيئ الذي تعين على أن أواجهه عند عودتي إلى البيت.

إن زوجتي بستان من الفضائل. وحتى في الأوقات العصيبة التي كان

علينا في بعض الأحيان أن نجتازها، لم أستطع أن أشك لحظة في طيبة قلبها ونبله، بيد أن احساتها الطبيعي ورحمتها لا يرحبان بالمفاجآت!

فهي انسان مرتب شديد الولع بالنظام لا يريد أن يتجاوز حدود الواجب المقرر من قبل، ولا يريد أيضاً أن يقصر دون مداه المرسوم المحسوب. فالإحسان والرحمة عند زوجتي منظمان جدا، كأنما المحبة كنز لا يمكن أن ينضب له معين، فهي لا تأخذ منه إلا بحساب وقدر.

وهذه هي نقطة الخلاف الوحيدة فيما بيننا.

فكان أول ما تبادر إلى ذهنها عندما رأتني عائداً ذاك المساء مع هذه الصبية، ما عبرت عنه بهذه الصيحة:

– بماذا كبلت نفسك أيضاً هذه المرة؟

وكدأبي في كل مرة يتحتم فيها أن تجرى بيننا مناقشة أشبه بالمشادة، بدأت بإخراج الأطفال الذين وقفوا هناك فاغري الفم، ملؤهم التساؤل والدهشة. آه! ما أبعد الشبه بين هذا الاستقبال وبين الاستقبال الذي كنت أتمناه. ولم يبد السرور إلا على ابنتي الصغيرة شارلوت، التي شرعت ترقص وتصفق بيديها عندما أدركت أن شيئا جديدا حيا سوف يخرج من العربية ليدخل البيت. ولكن الآخرين جميعاً، الذين أنشأتهم الأم على عينها ونسجتهم على منوالها، سرعان ما ألقوا على فرحتها ماء بارداً، وجعلوها تدخل في سياقهم.

وتلت ذلك لحظة بلبلة عظيمة. فلما كانت زوجتي وأطفالي يجهلون أن الفتاة عمياء، لم يدركوا سر العناية البالغة التي كنت أبذلها لتوجيه خطواتها.

وكنت شخصياً شديد الارتباك بسبب التأوهات الغريبة التي شرعت العاجزة المسكينة تطلقها بمجرد أن تخلت يدي عن الإمساك بيدها التي كنت قد ظللت ممسكا بها طوال الرحلة.

ولم تكن صيحاتها أشبه. بتعبير آدمي، بل كان المرء حريا أن يخالها أصوات أنين يطلقها جرو. ولما كانت قد انتزعت لأول مرة من الدائرة الضيقة التي تنحصر فيها احساساتها المألوفة التي منها يتكون عالمها بأسره، لذا أخذت ركبتاها تتخاذلان من تحتها. بيد أنها، عندما قربت نحوها مقعدا، تركت نفسها تتهاوى مكومة على الأرض، شأن من لم يتعود الجلوس. وعندئذ قدتها إلى جوار المدفأة، ثابت إلى شيء من الهدوء عندما تسنى لها أن تجثو متكومة في الوضع الذي رأيتها فيه أول مرة قرب مدفأة العجوز المتوفاة، قرب السياج الذي تبعث من خلفه النار.

وكانت وهي في العربة قد تكومت أمام المقعد، وقضت الرحلة كلها ملتصقة بقدمي.

وتقدمت زوجتي –رغم كل شيء– فساعدتني، وهي التي كانت أفضل حركاتها تلك التي تنبعث عن طبيعتها تلقائيا، بيد أن عقلها يناضل ضد هذه الطبيعة التلقائية، ويتغلب على نداء القلب.

وقالت لي بعد أن تم لنا استقرار الصبية في موضعها:

– ما الذي تنوي أن تصنعه بهذا الشيء؟

فارتعدت روحي عند سماع هذا اللفظ من فمها اشارة إلى الصبية، ووجدت عناء في مغالبة حركة استنكار كادت تبدر مني. ولكني كنت لم

أزل متشبعا بتأملي الهادئ الذي استغرقت فيه طوال الرحلة، فسيطرت على نفسي، واستدرت نحوهم جميعا -وكانوا قد تحلقوا حولي من جديد- واضعاً إحدى يدي على جبين الصبية العمياء، وقلت لهم بأقصى ما أسعفني من لهجات الوقار المهيب:

– لقد جئتكم بالشاة الضالة (إشارة إلى المثل المشهور في كلام السيد المسيح).

ولكن اميلى لا تقر أنه من الممكن أن يكون في تعاليم الانجيل شيء مناف للعقل، أو فوق مستوى العقل. ورأيت على محياها أنها توشك أن تعترض وتحتج. وعندئذ أومأت إلى جاك وسارة -وهما متعودان على خلافاتنا الزوجية الصغيرة، ثم هما قليلا الفضول بطبعهما "بل أقل فضولاً مما يروقني في معظم الأحيان"- فخرجا بالصغيرين من الحجرة. ولما وجدت زوجتي لم تزل مستاءة ومغيظة بعض الشيء -فيما يبدو لي- لوجود الدخيلة معنا، قلت لها:

– في وسعك أن تقولي ما تشائين أمامها، فالصغيرة المسكينة لا تفهم ما يقال!

وعندئذ شرعت اميلى تقول انه ليس لديها يقينا ما تقوله لي -وهي مقدمة مألوفة للدخول في مناقشات مطولة!- وانه ليس أمامها إلا الإذعان – كما هو الحال دائما لكل ما يمكن أن أبتدعه من أمور بعيدة كل البعد عن المعهود وعن البداهة السديدة، ومجافية للتطبيق العملي.

وقد كتبت آنفا انني لم أكن قد قررت بعد ماذا أنوي أن أصنع بهذه

الصبية الصغيرة. ولم أكن فكرت -اللهم إلا بصورة غامضة جداً- في إمكان اقامتها في بيتنا، وأكاد أستطيع أن أقول أن اميلى هي التي أوحت إلي بهذه الفكرة للوهلة الأولى، عندما سألتني ألا أعتقد أننا مكتظون في البيت. ثم أعلنت انني أندفع دائما من غير أن أبالي بمقاومة من ورائي، وأنه في اعتقادها أن الخمسة أطفال فيهم الكفاية، وأنها شخصيا منذ ولادة "كلود" الذي ما أن سمع اسمه يرد على لسان أمه في تلك اللحظة حتى شرع في الصباح وهو مستلق في مهده "تتحمل أقصى ما في طاقتها، وان ذلك حسبها.

ومنذ عبارتها الهجومية الأولى طفرت من قلبي إلى شفتي بضعة أقوال للسيد المسيح، كتمتها في نفسي، لأنني أرى دائما أنه مما يتنافى مع اللياقة أن أجعل سلوكي يحتمي خلف سلطة الكتاب المقدس. ولكن ما إن تذرعت بما يلحقها من عناء في البيت، حتى شعرت بالخجل، لأنني تذكرت أنه كثيرا ما حدث مني أني ألقيت على كاهل زوجتي عواقب الاندفاعات التي تحملني عليها حماستي من غير تدبر.

ومع هذا زادني ملامها إدراكا لواجبي، فتوسلت إلى اميلي بكل رفق أن تحكم بنفسها: أكانت ستصنع خلاف ما صنعت لو أنها كانت في مكاني، وهل كان بوسعها أن تترك في هذا الضيق والكرب كائنا ضعيفا ليس لديه في الدنيا ما يستطيع الركون اليه.

وأضفت إلى هذا أنني لست غافلاً ولا مخدوعاً في مقدار المتاعب الجديدة التي ستضيفها هذه الضيفة العاجزة إلى هموم تدبير البيت، وإن

أسفي عظيم لأنني لم أعد قادراً على مساعدتها في ذلك أكثر مما أقوم به الآن فعلاً. وأخيراً هدأتها ما وسعني ذلك، وتوسلت إليها أيضاً ألا تسقط على المسكينة البريئة سخطاً ليست جديرة به ولا جريرة لها فيه.

ثم لفت نظرها إلى أن سارة صارت منذ الآن في سن تسمح لها بمساعدتها أكثر من ذي قبل، وأن جاك أضحى في سن يستغنى فيها عن رعايتها له. وقصارى القول أن الله وضع على لساني الأقوال اللازمة لمساعدتها على تقبل ما أنا موقن بأنها كانت خليقة أن تأخذه على عاتقها من تلقاء نفسها طواعية، لو أن الأحداث تركت لها وقتا كافيا للروية، ولولا أنني تصرفت في إرادتها على حين غرة منها.

وحسبت أني كسبت الجولة أو كدت، واقتربت عزيزتي اميلى بطيبة قلب من جرترود، بيد أن ضيقها اشتعل أشد من ذي قبل عندما حملت المصباح بيدها كي تفحص هذه الطفلة بعض الشيء، فتبينت لها حالة قذارتها التي لا يمكن أن يحيط بها وصف! وصاحت:

– يا له من وباء! أسرع بتنفيض ثوبك وتفريشه. كلا! ليس هنا! اذهب وانفض نفسك في الخارج، آه يا إلهي! سيتفشى هذا كله بين الأطفال، وليس في الدنيا ما أخشاه وأفزع منه مثل هذه الحشرات والهوام!

ومما لا شك فيه أن الصغيرة المسكينة كانت مليئة بالحشرات والهوام. ولم أستطع أن أمنع نفسي من إبداء حركة تقزز وأنا أفكر في أنني كنت أضمها إلي أمداً طويلاً أثناء الرحلة في العربة.

ولما عدت بعد دقيقتين حاولت فيهما تنظيف نفسي قدر استطاعتي،

ألفيت زوجتي متهالكة في مقعد وثير، وقد وضعت رأسها بين يديها، وانخرطت في نوبة نحيب. فقلت لها برقة وحنان:

– لم أكن أحسب أني أعرض تجلدك وقوة احتمالك لمثل هذا الامتحان. ولكن الوقت هذا المساء صار متأخرا على كل حال، ولا يمكن الرؤية فيه بقدر كاف. وسأسهر الليلة كي أغذى النار التي ستنام الصغيرة بقربها. وغدا نقص لها شعرها، ونغسلها كما ينبغي. ولن تشرعي في العناية بها إلا عندما يتيسر لك النظر اليها من غير فزع أو استفظاع.

ورجوتها ألا تقول شيئاً عن هذا الأمر للأطفال.

وكانت ساعة العشاء قد حانت. وأخذت الصغيرة العاجزة –التي كانت خادمتنا العجوز "روزالي" ترميها وهي تقدم لنا الطعام بنظرات عداء شديد– تلتهم بشراهة ما في طبق الحساء الذي قدمته البها بنفسي.

٢٧ فبراير

وخيم الصمت على المائدة. وكنت أتمنى أن أروي لهم مغامراتي وأن أتحدث إلى الأطفال، وأحرك مشاعرهم، بإفهامهم غرابة هذه الفاقة وهذا العوز التام، بحيث يشعرون بوطأته، وأحرك بهذا شفقتهم وعطفهم على تلك الصبية التي دعانا الرب إلى تقبلها تحت رعايتنا. ولكني خشيت أن ابتعث سخط اميلى. وبدا كأن أمرا صدر بتناسى هذا الحدث، والاشتغال بغيره، وإن لم يكن في وسع أي واحد منا –قطعاً– أن يفكر في شيء سواه.

وقد تأثرت تأثراً بالغاً عندما حدث –بعد مضي أكثر من ساعة على

ايواء الجميع إلى مخادعهم، وترك اميلى إياي بمفردي في الحجرة– أن رأيت ابنتي الصغيرة شارلوت توارب الباب، وتتقدم في خفوت نحوي، في قميص نومها، حافية القدمين، ثم ترتمي على عنقي وتعانقني بعنف وهي تتمتم:

– لم أقل لك بما فيه الكفاية طاب مساءك!

ثم أشارت بطرف سبابتها إلى الفتاة العمياء التي كانت نائمة بكل هدوء واستغراق، وقد استبد بشارلوت الفضول لرؤيتها قبل أن تذهب لتنام، وقالت بصوت خافت:

– لماذا لم أقبلها؟

– ستقبلينها غدا. دعيها الآن. فهي نائمة ..

وصحبتها برفق إلى الباب.

ثم عدت فجلست وانصرفت للعمل حتى الصباح، قارئاً أو محاولاً ٔعداد موعظتي القادمة.

وخطر لي أن شارلوت تبدي يقينا من المشاعر أكثر مما يبديه من هم أسن منها في يومنا هذا، ولكن ألم يخدعني بمثل هذا المظهر كل واحد منهم عندما كان في مثل سنها؟ وكبيرهم جاك نفسه، الذي يبدو اليوم متباعدا متحفظا.. فالمرء يحسبهم في تلك السن الصغيرة رقيقين حانيين، وهم في الحقيقة متملقون متوددون .

٢٧ فبراير

سقط الثلج بغزارة هذه الليلة أيضاً. والأطفال شديدو الفرح ويقولون

أنه سيتعين على المرء بعد قليل أن يخرج من النافذة. والواقع أن الباب وجد هذا الصباح مسدودا، ولم يتسن الخروج إلا عن طريق المغسل.

وبالأمس استوثقت من أن لدى القرية وفر من المؤن، لأننا بلا شك سنقضي بعض الوقت معزولين عن سائر البشرية. وليس هذا أول شتاء يسد علينا الثلج الطرق والمنافذ ويحصرنا، ولكنني لا أتذكر أنى رأيت شبيهاً من قبل لعوائقه بمثل هذه الكثافة. وأنا أنتهز الآن هذه الفرصة كي أتم هذا السرد الذي كنت قد بدأته بالأمس.

وقد قلت آنفاً أني لم أسأل نفسي قط، عندما أحضرت هذه العاجزة، أي مكان يمكن أن تحتله في المنزل. وكنت أعرف ضالة مقاومة زوجتي، وأعرف ما يمكننا التصرف فيه من حيث المكان، وأعرف مواردنا المحدودة جداً.

وكنت قد تصرفت –كدأبي دائماً– بدافع من ميلي واستعدادي الطبيعي، أكثر مما تصرفت بدافع من المبادئ، ومن غير أن أحاول حساب النفقات التي يمكن أن يستوجبها اندفاعي "الأمر الذي كان يبدو لي دائما مناقضة لتعاليم الانجيل". ولكن الاتكال على الله شيء آخر غير إلقاء الأحمال على كواهل الآخرين.

وسرعان ما تبين لي أنني ألقيت على عاتق اميلى مهمة ثقيلة، بلغ من ثقلها أنني ظللت في البداية مأخوذاً مرتبكاً.

وكنت قد عاونتها جهد طاقتي في قص شعر الصغيرة، وكنت قد رأيتها لا تقبل على هذا العمل إلا في تقزز .. أما غسلها في الحمام وتنظيف

جسدها فلم يكن لي بد من تركهما لزوجتي. وفهمت بعد ذلك أن أبغض ما في هذه المهام هو الذي فاتني الإسهام فيه.

ولم تعد اميلى تبدي أقل احتجاج، إذ يبدو إنها كانت قد فكرت أثناء الليل واتخذت قرارها بتحمل هذا العبء الجديد. حتى أنها أبدت بعض السرور به، فقد رأيتها تبتسم بعد أن فرغت من تجهيز جرترود، وقد اكتسي رأسها الحليق المغطى بالمرهم بقلنسوة بيضاء، وحملت بعض ملابس سارة القديمة وثيابها الداخلية النظيفة محل الأسمال القذرة التي ألقتها اميلى طعمة للنيران.

وكانت شارلوت هي التي اختارت لها اسم جرترود، فوافقنا عليه فوراً، جهلا منا بالاسم الحقيقي الذي كانت اليتيمة لا تعرف ما هو، ولم أكن أدري أين أعثر على اسمها الأصلي.

ولابد أنها أصغر سنا بقليل من سارة، لأن الملابس التي تخلت سارة عن ارتدائها منذ عام غدت ملائمة لها.

وينبغي أن أعترف هنا بخيبة الأمل العميقة التي شعرت بأنها تخيم على الأيام الأولى التي تلت ذلك. فيقينا أنني تخيلت صورة وهمية كاملة للتربية التي أزمع أن أمنحها لجرترود، ثم فرض الواقع على أن أنتقص منها الكثير جداً. فتعبير عدم المبالاة والبلادة التي نطق به محياها، أو على الأصح انتفاء كل تعبير فيه على الإطلاق، جمد نيتي الطيبة حتى منابتها. فقد دأبت أن تظل طوال النهار قرب النار، محجمة نافرة محتجزة الحواس، وكلما سمعت أصواتنا، وعلى الخصوص كلما اقترب منها أحد، تصلبت

ملامحها، ولا يفارق هذه الملامح جمودها غير المعبر إلا لكي ينم على العداء. وما أن يحاول أحد استرعاء انتباهها حتى تشرع في الآنين والزمجرة كالحيوان. ولا يتوقف هذا الإعراض المتجهم إلا عندما يحين وقت الطعام، الذي كنت أقدمه لها بنفسي، فتنقض عليه بنهم بهيمي من أشد ما يكون ايلاما لن يشهده. وكما أن الحب يستثير الحب، كذلك أحسست بالنفور يستولي على نفسي أمام ما تبديه هذه النفس من الإعراض والرفض.

أجل، أعترف أنني كنت في الأيام العشرة الأولى قد بلغت مرحلة من اليأس ساقتني إلى نبذ الاهتمام بها، حتى أنني ندمت على اندفاعي الأول، وتمنيت لو أنني لم آت بها أصلاً.

وغاظني فضلا عن هذا أن زوجتي اميلى كأنما شعرت بالانتصار بعض الشيء بإزاء هذه المشاعر التي لم أعد قادرا على اخفائها عنها، فراحت تفيض عنايتها ورعايتها التي تبذلها لها. بمزيد من الإقبال وطيب الخاطر، منذ أحست أن جرترود غدت عبئا علي، وأن وجودها بيننا يكاد يزهق نفسي.

وكنت على هذا الحال عندما تلقيت زيارة صديقي الدكتور "مارتن"، من "فال ترافير"، أثناء إحدى جولاته التي يطوف فيها على مرضاه. وقد اهتم كثيرا لما حدثته عن حالة جرترود، ودهش في بداية الأمر من أنها ظلت متخلفة إلى هذا الحد، لأنها في نهاية المطاف ليست مصابة بعاهة غير كف البصر. فبينت له أنه يضاف إلى عاهتها هذه ما كانت العجوز التي ربتها مصابة به من الصمم، وهي التي قامت بمفردها حتى وفاتها على

رعايتها، فلم تكن بطبيعة الحال تتحدث اليها أبدا، بحيث ظلت المسكينة مهملة إهمالاً تاماً. وعندئذ أقنعني أنه لا يحق لي في هذه الحالة أن أقنط، كل ما هناك انني لم أحسن الابتداء في مهمتي، ثم قال لي:

– أنت تريد أن تبدأ تعليمها قبل التأكد من صلابة الأرض التي تقيم عليها البناء. فتذكر أن كل شيء يبدو فوضى في هذه النفس، وأن المخططات الأولى للمعرفة لم ترتسم لديها بعد. فينبغي في البداية أن تربط بضع احساسات لمسية وتذوقية أو "طعمية" في حزمة واحدة، ثم تلصق بهذه الحزمة صوتا أو كلمة تكون بمثابة العنوان أو اللافتة، تكرر قولها لها حتى السآمة، ثم تحاول بعد ذلك أن تجعلها تنطق بها. ويجب على الخصوص ألا تسرع أكثر مما يجب، واهتم بها وحاول هذا التعليم في أوقات منتظمة، واياك أن تجعل كل فترة منها تطول كثيراً.

ثم استطرد قائلا بعد أن أفاض لي في شرح منهجه بكل تفصيلاته:

– وليس في هذا المنهج على كل حال سر سحري. وأنا لم أخترعه، وكثيرون غيري قاموا بتطبيقه من قبل. أولا تذكر ذلك؟ عندما كنا نحضر لإجازة الفلسفة معاً، قام أساتذتنا، في صدد الكلام عن "كوندياك" وتمثاله الحي، بعرض حالة مثل هذه تماماً.

ثم استدرك قائلاً:

– اللهم إلا إذا كنت قد قرأت هذا فيما بعد في إحدى مجلات علم النفس.. وليس هذا بذي بال على كل حال، فالمهم أن الحالة المذكورة استوقفتني، حتى أنني أتذكر اسم تلك الطفلة المسكينة، التي كانت أشد

عجزا من جرترود، لأنها كانت عمياء وصماء وبكماء، اهتم بها طبيب في إحدى مقاطعات انجلترا، حوالي منتصف القرن الثامن عشر، وكان اسمها "لورا بريدجمان". وقد عنى هذا الطبيب بتدوين يومياته عن حالتها -وهذا ما ينبغي عليك أن تقوم به أيضاً- متتبعاً تقدم الطفلة، وجهوده الأولى لتعليمها. وقد واظب بإصرار طوال أيام وأسابيع على جعلها تلمس وتتحسس شيئين صغيرين بطريقة تبادلية: دبوساً وقلماً، ثم كان يجعلها تلمس على ورقة مطبوعة بطريقة "براى" المخصصة للمكفوفين هاتين الكلمتين: **Pin** و**Pen** الانجليزيتين. وظل عدة أسابيع لا يحصل من وراء ذلك على أي طائل، حتى خيل إليه أن جسدها غير مأهول بروح، بيد أنه لم يفقد الثقة. وقال في وصف ذلك أنه كان أشبه بامريء عاكف على حلقة بئر عميقة مظلمة، يحرك في أعماقها حبلاً باستماتة، على أمل أن تمتد يد هناك فتقبض عليه. لأن الشك لم يساوره لحظة واحدة في أن شخصا ما قابع هناك، في أغوار الهاوية، وأن الحبل الذي يدليه سيجد في النهاية من يتعلق به .. وأخيراً رأى ذات يوم على قسمات ذلك الوجه الجامد الذي تحمله لورا ما يشبه الابتسامة. وأعتقد أن دموع العرفان والمحبة طفرت عندئذ من عينيه، وانه خر ساجداً على ركبتيه شكرا الله .. فقد فهمت لورا أخيراً ما كان الدكتور يريده منها. وهكذا كتبت لها النجاة! ومنذ ذلك اليوم أبدت انتباها ويقظة، وغدا تقدمها سريعا. ثم سرعان ما شرعت في تعليم نفسها بنفسها، وصارت فيما بعد مديرة المعهد من معاهد العميان .. اللهم إلا إذا كانت هذه المديرة امرأة أخرى شبيهة بها في ظروفها، فقد تهافتت المجلات والصحف على نشر حالات مماثلة، وأجمع

الكل في بلاهة على أنهن ظفرن بحياة سعيدة، قائلين إن جميع أولئك العاجزات أو المصابات بآفات كن سعيدات، وأنه متى أتيح لإحداهن التعبير عن نفسها، راحت تقص على الناس مدى سعادتها. ولم يفت الصحفيين بطبيعة الحال أن يوبخوا من يتمتعون بحواسهم الخمس، لأنهم يجدون في أنفسهم الجرأة على الشكوى والتذمر!

وعندئذ شجرت مناقشة بين "مارتن" وبيني، لأني عارضت في مكابرة ما أبداه من تشاؤم ساخر، ولم أوافق على أن الحواس ليست –في رأيه – إلا موردا للكدر والشقاء، فقال محتجاً:

– ليس هذا ما أعنيه، بل أريد أن أقول ببساطة أن تخيل الجمال واليسر والتوافق أو التناغم أيسر على النفس الانسانية من تخيل الفوضى والخطيئة اللذين يلوثان العالم في كل مكان ويلطخانه ويهبطان بقدره ويمزقانه. وحواسنا الخمس هي التي تعرفنا بهما وتساعدنا على الإسهام فيهما ... وكم يكون البشر أسعد حالاً لو أنهم استطاعوا أن يجهلوا الشر!

ثم حدثني الدكتور " مارتن " بأمر حكاية من حكايات ديكنز يعتقد أنه استلهمها مباشرة مما حدث للورا بريدجمان، ووعدني أن يبعث بها إلى في أسرع وقت.

وبعد أربعة أيام تلقيت بالفعل تلك القصة التي كان عنوانها "جندب الدار"، فقرأتها بلذة فائقة. وهي قصة طويلة بعض الشيء ولكنها مؤثرة مؤسية في كثير من مواضعها، عن فتاة عمياء كان والدها صانع دمي ولعب أطفال فقير الحال، ولكنه جعلها –مستغلا عماها– تعتقد أنها تعيش في

كنف اليسر والترف والثراء والسعادة. وهي أكذوبة استطاع فن ديكنز أن يقدمها لنا في صورة عمل من أعمال الرحمة والتقوى، ولكنني – حمدا الله!– لن أكون مضطراً أن أحتذيها في معاملة جرترود.

* * *

وقد شرعت، منذ اليوم التالي لقدوم الدكتور مارتن "لزيارتي، في تطبيق منهجه الذي أفاض في شرحه لي، واجتهدت في ذلك ما وسعني الاجتهاد.

واني لنادم الآن على أنني لم أدون ملاحظاتي ومذكراتي يوماً بيوم كما نصحني "مارتن"، إلا سجل خطوات جرترود الأولى على هذا الطريق الشفقي، الذي لم أكن أرشدها شخصيا فيه أول الأمر إلا تلمساً أوعسعسة.

وقد احتاج الأمر في الأسابيع الأولى إلى صبر أعظم مما يمكن أن يتصوره المرء، لا بسبب طول الوقت الذي تقتضيه هذه التربية الأولى فحسب، بل أيضاً بسبب أنواع الملام الذي عرضني لها هذا الجهد المضني. وإنه ليعز على أن أقول إن هذا العذل الأليم كانت تصبه على زوجتي اميلى. بيد أني حين أذكره ها هنا، لا أشعر أنني استبقيت من ذلك كله أدنى شعور بالعداء، أوأدنى مرارة. وقصاراى أني أذكره تحسباً ليوم عسى أن تطالع هي فيه هـ ذه الصفحات "أليس الصفح عن الإساءات قد أوصانا به السيد المسيح في أعقاب أمثولة الشاة الضالة مباشرة؟"

بل إني أعني أكثر من هذا. ففي اللحظة عينها التي كان تألمي من ملامها أشد ما يمكن، لم أستطع أن أحنق عليها أو أسخط لأنها كانت

تستنكر انفاقي كل هذا الوقت الذي كنت أخصصه لجرترود. بل كان ما ألومها عليه بصفة خاصة انها كانت عديمة الثقة بأن جهودي هذه يمكن أن يكتب لها النجاح بأي صورة من الصور.

أجل، فقدان ثقتها هو الذي كان يؤلمني، ولكنه مع هذا لم يثبط من عزيمتي. فلكم سمعتها تكرر قولها:

– ليتك على الأقل تحصل على ثمرة بعد كل هذا العناء ..

وظلت طول الوقت مؤمنة بإصرار وعناد بأن جهودي ذاهبة أدراج الرياح. فكان من الطبيعي أن يبدو لها من الحمق ومجافاة اللياقة أن أخصص لهذه المهمة وقتا تعتقد هي أنه أجدر أن يستخدم فيما هو أجدى. فكانت كلما شغلت بأمر جرترود تذكرني دائما بأن هذا الشخص أو ذلك الشيء ينتظر عنايتي، وإنني أبدد في سبيل جرترود الوقت الذي كان ينبغي أن أوجهه لسواها.. ثم في النهاية بدا لي أنها تتقد بغيرة مبعثها ما لديها من عاطفة الأمومة، لأنني سمعتها تقول لي أكثر من مرة:

- إنك لم تشغل نفسك قط بهذا المقدار كله للعناية بأحد من أطفالك!

وكان هذا حقاً. فلئن كنت أحب أطفالي كثيرا، إلا أني لم أعتقد قط أنه لابد من الاشتغال بأمرهم كثيراً.

وما أكثر ما شعرت بأن أمثولة الخروف الضال من أصعب الأمثولات استيعابا وتسليما لدى بعض النفوس، وان كانت هذه النفوس تعتقد أنها عميقة الإيمان بالمسيحية. ذلك أن هؤلاء الناس لا يستطيعون الارتقاء إلى

المستوى الذي يفهمون فيه إن كل شاة في القطيع، إذا ما أخذت على حدة، يمكن أن تغدو في نظر الراعي الصالح أقيم وأثمن في حد ذاتها من سائر القطيع في جملته.

إن كلمات الأمثولة تقول "كما جاء في إنجيل متى "١٨: ١٢-١٤":

- ما قولكم؟ إذا كان لرجل مائة خروف، فضل واحد منها، أفلا يدع التسعة والتسعين في الجبال، ويمضي ينشد الضال؟ إنما ابن الآنسان جاء ليخلص ما كان هالكاً. الحق أقول إنه إذا وجده يفرح به أكثر منه بالتسعة والتسعين التي لم تضل.

هذه الكلمات تفيض بالرحمة التي تشع منها. ولكن تلك النفوس التي لا ترقى إلى مستواي لو نطقت بما تكنه في صراحة تامة، لرمت هذه الكلمات القدسية بالجور الجائر المثير!

***

ولقد عزتني ابتسامات جرترود الأولى عن هذا كله، وجزتني على جهودي وعنايتي بها مائة ضعف، لأن " الحق أقول لكم إنه إذا وجد الراعي ذلك الخروف الضال يفرح به أكثر منه بالتسعة والتسعين التي لم تضل.

أجل. وأقولها بحق: ما من ابتسامة أفتر عنها ثغر أحد من أطفالي غمرت فؤادي بمثل هذا الفرح الملائكي الذي غمرتني به تلك الابتسامة التي رأيتها تشرق على ذلك الوجه الذي كان أشبه بالتمثال ذات صباح

بدأت فيه تفهم وتهتم بما اجتهدت في تعليمها إياه منذ أيام كثيرة.

الخامس من مارس.

لقد سجلت هذا اليوم بوصفه يوم ميلاد جديد. ولم يكن ما رأيته ابتسامة بقدر ما كان تجلياً. فعلى حين غرة دبت الحياة في ملامحها. فكان هذا أشبه بإشراق مفاجئ، أقرب ما يكون شبها بذلك الضوء الأرجواني الذي نراه في أعالي جبال الألب يسبق بزوغ الفجر، فترتسم فيه القمم المغطاة بالثلوج بشيرا بانقضاء حلكة الليل. وذكرني أيضاً ببركة "بيت ذاتا" في اللحظة التي يهبط فيها الملاك ويحرك المياه الراكدة. واستولى على نفسي الانتشاء أمام التعبير الملائكي الذي ارتسم على محيا جرترود فجأة، لأنه خيل إلى أن ما أنتابها في تلك اللحظة وهبط عليها ليس الذكاء، بقدر ما هو المحبة. وعندئذ تملكتني سورة عرفان، سمت بي إلى عليين، حتى لقد بدا لي أنني أقدم قربانا الله تلك القبلة التي طبعتها على ذلك الجبين الجميل.

***

ولئن كانت هذه النتيجة الأولى قد جاءت ثمرة جهود شاقة طويلة الأمد، فإن ما أعقبها من التقدم كان سريعا جدا على أثر ذلك، حتى إني أجد الآن عناء في تذكر السبل التي سلكناها. فإنه ليخيل إلى أن جرترود كانت تتقدم في قفزات كبيرة، لا بخط مستأنية، حتى لكأنها تسخر من وسائلنا التي انتهجناها. وأذكر إنني ألححت في البداية على صفات وكيفيات الأشياء، أكثر مما عنيت بتبيانها وتنوعها، فاهتممت أساسا بالحار والبارد، والدافئ، والحلو، والمر، والخشن، واللدن، والخفيف، وما إلى ذلك

ثم اهتممت في مرحلة تالية بالحركات، من قبيل الإبعاد، والتقريب، والرفع، والتقاطع، والرقاد، والعقد، والتفريق، والتجميع، وما إلى ذلك ..

ولكن سرعان ما تخليت عن كل منهج، ورحت أتحدث اليها من غير أن أهتم كثيرا هل يستطيع ذهني متابعتي على الدوام أم لا، إلا أني صرفت اهتمامي إلى دعوتها ببطء وحفزها على توجيه الأسئلة إلي على مهل.

ومما لا شك فيه أن ذهنها كان يعمل في الأوقات التي كنت أتركها فيها خالية إلى نفسها، لأنها كانت تطالعني في كل مرة أعود فيها إليها بمفاجأة جديدة، بحيث كنت أحس أن الظلمة التي تفصلني عنها تقل كثافتها، فكنت أقول لنفسي أنه على هذا النحو.. ينتصر دفء هواء الربيع شيئاً فشيئا على زمهرير الشتاء. وكم من مرة أعجبت بالأسلوب الذي ينصهر به الجليد، فكأنما هو معطف يبلى من داخله، في حين يظل مظهره الخارجي كما هو بعينه. وكانت اميلى تنخدع بذلك في كل شتاء، وتقول لي:

– ها هو الجليد لم يتغير!

فالمرء يخاله لم يزل سميكاً، ثم إذا به ينهار دفعة واحدة، ومن موضع إلى موضع تتبدي من تحته الحياة مرة أخرى.

***

ولما كنت قد خشيت أن تذوى جرترود لبقائها طول الوقت إلى جانب النار بلا انقطاع، كالعجائز، لذا شرعت أخرجها إلى الخلاء بيد أنها لم تكن لترضى بالتنزه إلا معتمدة على ذراعي. وأدركت من غير حاجة بي

إلى أن تقول لي إنها لم تكن قد غامرت بالخروج من باب البيت قبل ذلك .. أدركت من دهشتها وخوفها في بداية خروجنا معاً. فحينما كانت تعيش بالكوخ الذي وجدتها فيه لم يشغل أحد نفسه بأمرها اللهم إلا كي يقدم إليها ما تأكله، ولمساعدتها على ألا تتعرض للهلاك "فلست أجرؤ أن أقول لمساعدتها على الحياة".

فعالمها المظلم كان محدودا بالجدران التي تتكون منها تلك الحجرة الوحيدة التي لم تغادرها قبل ذلك اليوم قط. وغاية ما في الأمر أنها كانت تقامر في أيام الصيف بالوقوف على العتبة، عندما كان الباب يترك مفتوحا على العالم الكبير المضيء.

وقد روت لي فيما بعد أنها عندما سمعت تغريد العصافير تخيلت أن ذلك التغريد مجرد أثر من آثار النور، شأنه شأن تلك الحرارة التي كانت تحسها تداعب خديها ويديها، وأنها –من غير أن تطيل التفكير في ذلك– كانت ترى من الطبيعي أن يأخذ الهواء الساخن في التفريد والفناء، على نحو ما يأخذ الماء في الغليان إذا ما وضع على النار.

والواقع أنها لم تعن نفسها بشيء من ذلك اطلاقا، ولم تكن تلي بالها إلى شيء، وتعيش في خمول، إلى أن حل اليوم الذي شرعت فيه أهتم بها. وإني لأذكر سرورها الذي لا حد له عندما أخبرتها أن هذه الأصوات الصغيرة "التغريد" تنبعث من كائنات حية، يبدو أن وظيفتها الوحيدة هي الإحساس بالطبيعة والتعبير عن شتى أفراحها المبثوثة المتفرقة. ومنذ هذا اليوم صار من عادتها أن تقول:

– أنا مسرورة جذلانة كالعصفور.

بيد أن تفكيرها في أن هذه الأغاريد تروي بهاء منظر لا تستطيع هي أن تشاهده وتتملى منه شرع يبث في نفسها الاكتئاب. وكانت تسألني:

– أصحيح أن الأرض بكل هذا الجمال الذي تصوره أغاريد الطيور؟ لماذا لا يحدثني أحد عن هذا؟ لماذا لا تحدثني عنه أنت؟ أخوفا من إيلامي، لأنني لا أستطيع أن أراه؟ أنك لمخطئ. فأنا أجيد الإصغاء للعصافير والطيور، وأعتقد أني أجيد فهم ما تقول.

– إن من يستطيعون رؤيتها لا يجيدون سماعها كما تجيدينه أنت يا عزيزتي جرترود.

أقول ذلك لها، على أمل ادخال العزاء على قلبها. فتسألني:

– ولماذا لا تغرد سائر الحيوانات مثلما تغرد الطيور؟

وكانت أسئلتها تأخذني أحياناً على غرة، فأظل برهة مبلبلاً مرتبكاً، لأنها أسئلة تحملني على التفكير فيما كنت أتقبله حتى تلك اللحظة بغير دهشة أو عجب. وهكذا فكرت – لأول مرة في حياتي، في أن الحيوان كلما زاد التصاقه بالأرض عن كثب، وكلما ثقل وزنه، زاد اكتئابه! وهذا ما حاولت أن أفهمها اياه، وحدثتها كذلك عن السنجاب البر وألاعيبه المرحة.

وعندئذ سألتني:

– هل الطيور هي الحيوانات الوحيدة التي تحلق في الجو؟

فقلت لها:

– بل هناك الفراشات أيضاً.

– وهل الفراشات تغني؟

فأجبتها:

– بل لها أسلوب آخر للتعبير عن فرحها .. وهذا الأسلوب يتمثل في تلك الألوان على جناحي الفراشة.

ووصفت لها جهدي برقشة أجنحة الفراش.

٢٨ فبراير

اليوم أعود القهقرى، لأنني بالأمس تركت العنان لنفسي فانسقت مندفعاً.

***

لقد تعين على –كي أعلم جرترود الأبجدية الخاصة بالعميان– أن أتعلمها شخصياً أولاً، بيد أنها سرعان ما غدت أبرع مني في قراءة هذه الكتابة التي كنت أجد مشقة عظيمة في التعرف عليها، والتي كنت فضلا عن هذا أتابعها للقراءة بعيني، أكثر مما أتابعها بأناملي.

ثم أنني –فضلاً عن هذا– لم أكن الشخص الوحيد الذي يقوم على تعليمها. وفي البداية كنت سعيدا إذ أجد من يساعدني في هذه المهمة، لأن أعمالي في أنحاء الأبروشية كثيرة جدا، لأن المنازل فيها شديدة التشتت، بحيث يتحتم على كيما أقوم بزيارة الفقراء والمرضى أن أقوم برحلات

وأشواط بعيدة. الشقة جدا في بعض الأحيان.

وكان جاك قد "توصل" إلى كسر ذراعه أثناء تزحلقه على الجليد في عطلة عيد الميلاد التي حضر لتمضيتها معنا، إذ كان قبل ذلك قد عاد إلى لوزان حيث كان قد قام بدراساته الأولى، ودخل كلية اللاهوت. ولم يكن الكسر الذي أصيب به يمثل أدنى خطورة، واستطاع الدكتور مارتن، الذي كنت قد استدعيته في الحال، أن يجبره بسهولة، بدون حاجة إلى الاستعانة بجراح، بيد أن الاحتياطات التي فرضت نفسها على جاك أجبرته على ملازمة البيت بعض الوقت.

وعندئذ بدأ فجأة يهتم بجرترود، التي لم يكن حتى ذلك الحين قد أولاها أدنى اعتبار، وشغل نفسه بعد ذلك بمساعدتي في تعليمها القراءة. ولم يستمر هذا التعاون إلا ريثما انقضت فترة نقاهته، التي دامت زهاء ثلاثة أسابيع، إلا أن جرترود أحرزت تقدما محسوسا. ذلك أن حماسة خارقة للمعتاد استولت عليها وصارت تستحثها. فإذا بذكائها الذي كان بالأمس القريب خائراً أو هاجعاً وقد انبرى بكل همة، كمن لم يكد يتعلم كيف يخطو خطواته الأولى فإذا به يشرع في الجري قبل أن يتعلم المشي!

وإني لأعجب بما كانت تجده من اليسر في صياغة انكارها، وكيف استطاعت بسرعة فائقة أن تصل إلى التعبير عما يدور بخاطرها، لا بأسلوب طفلي على الإطلاق، بل بأسلوب صحيح، مستعينة على تصوير فكرتها – في نهج غير متوقع وفي غاية الطرافة واللطف– بالأشياء التي عرفناها بها، أو بالأشياء التي حدثناها عنها أو وصفناها لها عندما يتعذر علينا أن نجعلها

في متناول يدها مباشرة، ذلك اننا كنا نستخدم دائما ما تستطيع لمسه أوشمه في شرح ما لا يمكنها احتواءه، متخذين في ذلك طريقة قياس الأبعاد.

بيد أنني أعتقد أنه لا جدوى من أن أدون هنا جميع الخطوات الأولى في مدارج ذلك التعليم، وهي خطوات متبعة بلا شك في تعليم كافة العميان. وهكذا يلوح لي أن مسألة الألوان كانت بالنسبة لكل أعمى مشكلة محيرة ومحرجة لكل من مارس تعليم المكفوفين. "وفي هذا الصدد استرعي انتباهي إلى أن الآنجيل خال من أي اشارة إلى الألوان".

ولست أدري كيف تصرف الآخرون في هذا الشأن. أما أنا فقد شرعت في تعريفها أسماء ألوان الطيف، طبقا لترتيب ظهورها في قوس قزح. ولكن سرعان ما التبس في ذهنها الأمر بين اللون والضوء أو الاتضاح. ولاحظت أن خيالها لا يستطيع التوصل إلى أي تمييز بين اختلاف درجات اللون وبين ما يسميه الرسامون "الرتبة". فما كان أشق أن تفهم أن كل لون يمكن أن يكون متفاوت العمق، وأن جميع الألوان يمكن أن تختلط فيما بينها في امتزاج لا حصر له. وكان ذلك يحيرها ويبلبلها، ولا تفتأ تعود للكلام فيه.

وقد أتيح لي – مع هذا– أن آخذها إلى نيو شاتل حيث استطعت أن أوفر لها الاستماع إلى حفل موسيقي ويسر لي الدور الذي تقوم به كل آلة في السيمفونية أن أعود للكلام في مسألة الألوان هذه. ولفت نظر جرترود إلى أنواع الرنين المختلفة للآلات النحاسية، والآلات الوترية

والخشبية، وأن كل آلة منها لها طريقتها الخاصة وقابليتها، مع تفاوت في الشدة، لإعطائنا كل نغمات السلم الموسيقى، من أعرضها إلى أشدها حدة. ثم دعوتها أن تتخيل على نفس الشاكلة ما يتبدى في الطبيعة من تنويعات حمراء وبرتقالية شبيهة برنين الأبواق والمزامير، وتنويعات ص فراء وخضراء شبيهة برنين الفيولينات والفيولونسيلات والباصات. وتنويعات بنفسجية وزرقاء تمثلها هنا الفلوت والكلارينيت الأوبوا. وعندئذ حلت نشوة فرح داخلية محل الشكوك لديها، وراحت تكرر قولها:

– كم لابد أن يكون هذا جميلاً ثم قالت فجأة:

– ولكن ماذا عن الأبيض؟ لم أفهم بعد ماذا يشبه اللون الأبيض؟ ..

وعلى الفور بدا لي مبلغ تزعزع مقارناتي وتشبيهاتي. وحاولت أن أقول لها مع هذا:

– اللون الأبيض هو ذلك الحد الحاسم الواضح المشرق الذي تمتزج عنده كل هذه الألوان، كما أن اللون الأسود هو نهايتها المعتمة ..

بيد أن هذا التفسير لم يرضني، كما أنه لم يرضها، إذ أها سرعان ما قالت لي أن الآلات الخشبية والنحاسية والفيولينات تظل كل منها متميزة عن سائرها في أعرض النغمات كتميزها في أعظمها حدة.

ولكم عرضت مناسبات كهذه المناسبة كنت ألوذ فيها بالصمت في البداية، مبلبلاً متحيراً، لا أدري إلى أي المقارنات والتشبيهات يمكن أن ألجأ. وأخيراً قلت لها:

– حسناً! تخيلي الأبيض وكأنه شيء تام النقاء، شيء ليس فيه أي لون، بل هو ضوء محض فحسب. وتخيلي الأسود –على العكس من ذلك– مثقلاً باللون إلى تمام العتمة أو الحلكة ..

***

ولست أروي هنا هذا الحوار الذي يشبه الحطام إلا كي يكون مثلاً للصعوبات التي كثيراً جداً ما كنت أرتطم بها، فقد كانت جرترود تتميز بأنها لا تتظاهر أبدا بالفهم، كما يصنع الناس في كثير جداً من الأحيان، وبذا يزحمون أذهانهم بمعلومات غير دقيقة أو غير صحيحة، تعيب فيما بعد كل ما يصدر عنهم من استدلالات. أما هي فتظل كل معلومة سببا للقلق والضيق ما لم تتكون لديها عنها فكرة واضحة متميزة محددة.

وفيما يتعلق بما قلته آنفاً، جعلت الصعوبة تتفاقم بسبب ما كان في البداية من ارتباط وثيق بين معنى الضوء ومعنى الحرارة في ذهنها، بحيث وجدت أعظم المشقة والعناء في الفصل بينهما فيما بعد.

***

وهكذا كنت أخبر وأحس بلا انقطاع من خلالها بمبلغ التباين بين العالم المرئي وعالم الأصوات، وإلى أي حد تبدو عرجاء كل مقارنة نحاول بها تشبيه ما في أحد هذين العالمين بما في الآخر.

٢٥ فبراير

لقد شغلتني مقارناتي –بين الألوان والأصوات– فلم أذكر هنا بعد

مبلغ ما استولى على جرترود من سرور عظيم بذلك الحفل الموسيقى " الكونسير " الذي حضرته في نيو شاتل. وقد كانت القطعة التي عزفتها الفرقة هي بالتحديد "السيمفونية الرعوية".

وأقول "بالتحديد": لأنه لم يكن ثمة عمل موسيقى كنت أتمنى أن أجعلها تسمعه، أكثر من هذه السيمفونية. وقد ظلت جرترود أمدا طويلا بعد مغادرتنا ذلك "الكونسير" لائذة بالصمت، وكأنما استغرقتها النشوة.

وأخيرا قالت:

– أحق أن ما تراه بمثل هذا الجمال؟

– بمثل جمال ماذا يا عزيزتي؟

– بمثل جمال ذلك "المشهد على شط الجدول".

ولم أرد عليها في الحال، لأنه دار بخلدي أن هذه التناغمات التي لا توصف لا تصور العالم كما هو، بل العالم كما كان من الممكن أن يكون، أي كما كان من الممكن أن يوجد لولا الشر، ولولا الخطيئة. ولم أكن قد تجارت البتة من قبل على التحدث إلى جرترود عن الشر وعن الخطيئة وعن الموت.

وأخيراً قلت لها:

– إن من لهم عيون وأبصار لا يعرفون مبلغ ما أوتوه من سعادة.

فصاحت على الفور:

– أما أنا التي لا بصر لها فأعرف سعادة السمع!

وكانت تلتصق بي وهي سائرة، وتتكئ بثقلها على ذراعي، على نحو ما يصنع الأطفال الصغار.

– أتشعر، أيها الراعي "القس" بمبلغ سعادتي؟ كلا. كلا!

لست أقول هذا الكلام كي أدخل السرور على نفسك وانظر إلي ! أليس يبدو هذا على المحيا عندما يقول المرء ما يجافي الحق؟ أما أنا فأعرف هذا على الفور من نبرة الصوت. أتذكر ذلك اليوم الذي قلت لي فيه أنك لم تكن تبكي، بعد أن قامت خالتي "فهكذا كانت تدعو زوجتي" بتوبيخك لأنك لا تعرف كيف تقدم لها العون؟ عندئذ هتفت في سريرتي: أنت تكذب الآن أيها الراعي "القس"! أوه! لقد أحسست على الفور في صوتك أنك لا تقول لي الحقيقة، ولم أكن بحاجة إلى تحسس وجنتيك كي أعرف إنك كنت تبكي.

ثم عادت بعد لحظة تكرر قولها بصوت عال جداً:

– كلا! لم تكن بي حاجة إلى تحسس وجنتيك.

فاحمر وجهي، لأننا كنا لم نزل في المدينة، ولأن بعض المارة تلفتوا عند سماع صوتها العالي. ومع هذا استطردت تقول:

. ينبغي ألا تحاول تلبيس الحقيقة علي، أولا لأنه من الخساسة إلى حد كبير أن تحاول خداع عمياء ..

وأردفت ضاحكة:

– ثم إن ذلك لن ينطلي علي. والآن قل لي أيها الراعي "القس" أنت

لست شقياً. أليس كذلك؟

فرفعت يدها إلى شفتي، كأنني أريدها أن تحس – من غير أن أعترف لها بذلك صراحة – إن سعادتي صادرة عنها، وقلت لها:

– كلا يا جرترود، كلا! لست شقياً. وكيف يمكن أن أكون شقيا؟

– ولكنك مع هذا تبكي أحيانا؟

– اجل، كنت أبكي أحيانا.

– ولكن ليس بعد المرة التي ذكرتها لك؟

– كلا. لم اعد ابكي، بعد تلك المرة.

– ولم تعد تتمنى أن تبكي؟

– كلا ياجرترود

– والآن قل لي .. ألم تساورك بعدها الرغبة في الكذب؟

– كلا. يا ابنتي العزيزة.

– أفي وسعك أن تعدني بألا تحاول البتة خداعي؟

– أعدك بهذا.

– عظيم؟ قل لي الآن فورا، أأنا جميلة؟

وأربكني هذا السؤال المفاجئ، لأنني لم أرد حتى ذلك اليوم أن ألقى انتباها إلى جمال جرترود الذي لا مراء فيه، وكنت أرى أنه لا طائل –فضلاً عن هذا– وراء إخبارها به.

وقلت لها على الفور:

– وماذا يهمك من معرفة هذا؟

فقالت:

- بل هذا مصدر همي ولب اهتمامي. أريد أن أعرف هل أنا .. كيف تعبرون أنتم عن هذا؟ .. أريد أن أعرف هل أنا لست نشازاً جسيماً جداً في السيمفونية. وإلى من سواك، أيها الراعي، يمكن أن أتوجه بسؤالي هذا؟

فقلت لها، مدافعا عن نفسي جهد استطاعتي:

– ليس للراعي أن يهتم بجمال الوجوه.

– ولماذا؟

– ذلك أنه بحسبه جمال الأرواح.

فقالت:

– إذن أنت تفضل أن تدعني أعتقد أنني قبيحة ..

واختبأت في عبوس فاتن، بحيث لم أطق صبراً، وهتفت بها:

– جرترود! أنت تعلمين جيداً أنك جميلة!

فصمتت، وران على محياها تعبير جاد جداً، لم يفارقه قط إلى أن عدنا إلى البيت.

***

وما إن دخلنا المنزل حتى وجدت زوجتي اميلي الوسيلة لإشعاري بأنها

لا تقر ذلك الأسلوب الذي قضيت به يومي هذا ..

وكان بوسعها أن تقول لي ذلك قبل الآن، بيد أنها تركتنا ننطلق، جرترود وأنا، من غير أن تتفوه بكلمة، طبقا لعادتها في تركي أصنع ما أشاء، محتفظة لنفسها بالحق في الانحاء علي باللائمة فيما بعد.

وهي على كل حال لم توجه إلي اللوم هذه المرة بصورة محددة، بل كان صمتها نفسه إصبع اتهام. ألم يكن من الطبيعي أن تستخبرنا عما سمعناه في "الكونسير" الموسيقى، ما دامت تعلم سلفا أنني صحبت جرترود لهذا الغرض؟ أولم يكن من شأن فرح هذه الصبية أن يربو ويزداد بأدنى ما تبديه اميلى من اهتمام بما يدخل السرور على نفسها؟

بيد أن اميلى لم تلزم جانب الصمت على إطلاقه، بل بدا عليها أنها تتكلف عمداً ألا تتكلم إلا عن أمور بالغة التفاهة. وفي المساء، عندما أوى الأطفال إلى مضاجعهم انتحيت بها جانبا وسألتها بحدة:

– أغاضبة أنت لأنني أخذت جرترود إلى "الكونسير"؟

فكان جوابها:

– إنك تصنع لها ما لم تكن لتصنعه لأي أحد من أطفالك!

هي إذن عين الشكوى التي تتكرر منها دائما، وعين ما تعودته من رفض أدراك أن المرء يحتفل بالابن الضال حين يعود، لا بأولئك الذين ظلوا في البيت، على نحو ما يبينه لنا المثل الذي ضربه السيد المسيح.

وآلمني أيضاً أنها لم تكن تحسب أي حساب لعاهة جرترود، التي لا

يمكن أن تطمح إلى أي احتفال سوى هذا الاحتفال الموسيقى. ولئن كنت في هذا اليوم خاليا –بعناية الرب– من المشاغل "وأنا المثقل بالواجبات عادة" فإن لوم اميلى لي يغدو جائراً لأنها تعلم تمام العلم أن كل واحد من أطفالي كان لديه في هذا اليوم عملا يؤديه، أو مشغلة تشغله وتبقيه في البيت، وإنها هي شخصيا "أي اميلى" لا تذوق لديها للموسيقى إطلاقا، بحيث لو توفر لها وقت الفراغ مهما كثر فلن يخطر ببالها أن تذهب إلى حفل موسيقى، وإن كان هذا الحفل عن كثب من باب دارنا.

وأحزنني أكثر من هذا كله أن اميلى أقدمت على التصريح بهذا كله أمام جرترود، فمع أني انتحيت بزوجتي جانباً، إلا أنها حرصت على رفع صوتها بحيث تسمعه جرترود. والحق أن استنكاري كان أشد من حزني. وما إن غادرتنا اميلى بعد لحظات حتى اقتربت من جرترود، وتناولت يدها الصغيرة الناحلة وحملتها إلى وجهي قائلاً:

– ها أنت ترين أني لم أبك هذه المرة!

فقالت، وهي تحاول أن تبتسم لي:

– كلا. بل كان هذا دوري هذه المرة!

ورأيت وجهها الجميل الذي رفعته إلى غارقا في الدموع .

٨ مارس

إن المسرة الوحيدة التي أستطيع إدخالها على نفس اميلى أن أمتنع عن عمل ما يسؤها، وإمارات الحب السلبية الخالصة هذه هي كل ما تبيحه

لي. أما إلى أي حد استطاعت فعلا أن تضيق حياتي، فهذا ما لا تستطيع أن تلقي بالها إليه أو تدركه.

آه! ليت الله يشاء لها أن تطالبني بالإقدام على عمل عسير! فما أعظم فرحي لو تسنى لي أن أقدم من أجلها على اقتحام الخطر والاجتراء عليه! وكأني بها تنفر من كل ما ليس معتادا مألوفا، بحيث لا يتجاوز التقدم في الحياة لديها إضافة أيام متشابهة إلى الماضي الذي تشبهه. وهي لا تأمل، بل ولا تقبل مني، فضائل جديدة، ولا نموا أو زيادة في الفضائل المقررة سلفا. وتنظر بقلق، إن لم نقل بتريب، إلى كل جهد تقوم النفس التي ترى في المسيحية شيئا آخر غير ترويض الغرائز واستئناسها.

وينبغي أن أعترف هنا أنني كنت قد نسيت تماما وأنا في نيو شاتل أن أتوجه لتسوية حساب البزازة التي نتعامل معها، طبقا لرجاء اميلى، وأن أحضر لها علبة خيط. ولكني سخطت على نفسي لهذا التقصير فيما بعد، سخطا يتجاوز بكثير ما يمكن أن تشعر هي به نحوي، ولاسيما أنني كنت قد آليت على نفسي ألا يفوتني هذا الأمر، عالما أن "الأمين في الصغائر أمين أيضاً في العظائم" وكنت أخشى كثيراً ما يمكن أن تستخلصه من هذا النسيان. بل وتمنيت أن توجه إلى شيئا من اللوم على ذلك، لأنني كنت قطعاً مستحقاً للوم في هذا الشأن.

ولكن الذي حدث أن حنقها الوهمي طغى على العثرة أو السقطة المحددة. آه! كم تكون الحياة أجمل، وكم يكون شقاؤنا أهون احتمالاً، لو أننا اكتفينا بالشرور الواقعية ولم نعر آذاناً صاغية لأشباح تفكيرنا وخيالاته

الشائهة. بيد أني أرخى العنان هنا لنفسي كي انساق فيما يصلح بالأولى موضوعا لإحدى عظاتي "لاتقلقوا!". فأنني هنا لا أسجل إلا ما يتصل بتاريخ نمو جرترود ذهنياً وخلقياً. وإلى هذا الموضوع الأساسي أعود.

***

كنت أتمنى لو تابعت هنا هذا النمو.. خطوة خطوة، وقد بدأت بالفعل أروى تفصيلاته. ولكن فضلا عن أنه تعوزني الفسحة الكافية من الوقت لتسجيل جميع المراحل بدقة، فإنه من العسير علي جدا أن أتذكر السباق بالضبط.

لقد جرفني السرد في تياره فرويت أولاً تعليقات فاهت بها جرترود، ومحادثات لي معها متأخرة جدا، بحيث يدهش القارئ الذي قد يطالع هذه الصفحات ولا شك أن يسمعها تعبر عن أفكارها بمثل هذه الدقة، وتفكر بمثل هذا الأحكام. ثم أن تقدمها جرى بسرعة محيرة، حتى أنى لأعجب في كثير من الأحيان للسرعة التي تمثل بها فكرها الغذاء الذهني الذي كنت أقدمه اليها، بل وكل ما يمكن أن يكون في متناول عقلها، في نشاط عظيم ونضوج متصل. وكانت تدهشني بسبقها الدائم لتفكيري، وتجاوزها إياه، بحيث كنت ما بين حديث لي معها والذي يليه لا أكاد أتعرف على تلميذتي.

وما إن انقضت بضعة أشهر حتى بدا لي أن ذكاءها لم يخلد إلى السبات أمداً طويلاً. بل أظهرت من الحكمة ما لا تتمتع به غالبية الفتيات اللواتي يشتت انتباههن العالم الخارجي، وتستغرقهن الشواغل الكثيرة التافهة.

وفضلاً عن هذا كانت – فيما أعتقد– أن مما بدا لنا في أول الأمر. وبدا أنها تستغل عماها على أحسن وجه، بحيث راودني الظن أن هذه العاهة نفعتها من كثير من الوجوه. ووجدت نفسي – برغمي– أقارن بينها وبين شارلوت. وعندما كنت أقوم أحيانا بمراجعة دروس شارلوت، وأجد ذهنها شارداً لأقل ذبابة تحلق بقربها في الحجرة، كنت أقول في نفسي:

– كم يكون اصغاؤها لي خليقا أن يكون أفضل وأتم لو لم تكن مبصرة!

***

وغني عن القول إن جرترود كانت شديدة الولع بالقراءة. ولما كنت أشد اهتماما بمصاحبة تفكيرها الخاص قدر الإمكان، لذا كنت أفضل ألا تقرأ كثيراً، أو على الأقل ليس كثيرا، ولاسيما التوراة. وهو أمر يبدو غريباً أن يصدر عن راع "قس" بروتستنتي. وسأفسر السبب في هذا، ولكني – قبل الشروع في مسألة بهذا القدر من الأهمية. أريد أن أروي واقعة ص غيرة لها صلة بالموسيقى، يجب أن نضعها تاريخيا –طبقاً لما أتذكره– بعد الحفل الموسيقى في نيو شاتل بوقت قصير.

أجل، كان هذا الحفل الموسيقى "الكونسير" قد أقيم –فيما أعتقد– قبل عطلة الصيف بثلاثة أسابيع، تلك العطلة التي جاءت إلينا بابني جاك من مدرسته. وفي تلك الفترة كنت أحيانا أتى بجرترود وأجلسها أمام الهارمونيوم الصغير في كنيستنا، وهو الذي تتولى العزف عليه أساساً الآنسة دي م .. التي تقطن لديها جرترود حالياً .

ولم تكن الآنسة دي م قد بدأت تعليم جرترود الموسيقى بعد. وبرغم حبي الشديد للموسيقى ليست لي بها دراية كبيرة، ولم أشعر قط أني مستطيع أن أعلمها شيئا منها عندما جلست أمام المعزف بقربها. وقالت لي جرترود منذ العسعسات أو التحسسات الأولى:

- كلا. دعني، فإني أفضل أن أحاول هذا بمفردي!

وتركتها وأنا أشعر بالرضا لأن الكنيسة لا تبدو لي البتة مكاناً ملائماً أغلقه على كلينا وحدنا، احتراما لهذا الموضع المقدس، واتقاء للأقاويل .. وإن كنت في العادة أجتهد ألا ألقي إلى هذا بالي، بيد أن الأمر هنا يتعلق بها وليس متعلقاً بي وحدي.

وكنت حينما يدعوني الواجب إلى القيام بدورة من الزيارات في هذا الاتجاه أصحبها حتى الكنيسة، ثم أتركها فيها، وكثيرا ما امتد غيابي عنها ساعات طويلة، ثم أرتد اليها لأصحبها عند عودتي. وكانت تشغل نفسها في تلك الساعات بصبر وأناة لاكتشاف توافقات موسيقية، فكنت أجدها قرب المساء منصرفة بكل انتباهها إلى لحن توافقي تغمرها بالنشوة الطويلة.

وبعد نحو ستة أشهر، في يوم من أوائل أيام شهر أغسطس، لم أجد الأرملة التي كنت أريد زيارتها لإدخال شيء من العزاء عليها في دارها، فعدت كي آخذ جرترود من الكنيسة حيث كنت قد تركتها. ولم تكن تنتظر عودتي اليها في مثل هذا الوقت المبكر، فأدهشني غاية الدهشة أن أجد إبني جاك معها.

ولم يكن أحد منهما قد سمعني وأنا أدخل الكنيسة، لأن صوت الباب الخافت تلاشى وسط رنين الأرغن. وليس الترصد أو التلصص من طبعي، بيد أن كل ما يتصل بجرترود قريب إلى قلبي، لذا خففت من خطواتي وصعدت متسللا تلك الدرجات القليلة التي تفضي إلى المنصة التي هيأت لي موقعاً ممتازاً للمراقبة.

وينبغي أن أقول إنني طوال الوقت الذي مكثته هناك لم أسمع من أي منهما كلمة واحدة لم يكن حريا أن يقولها أمامي. بيد أن جاك كان ملاصقا لها، ومرارا عديدة رأيته يتناول يدها كي يرشد أناملها إلى أصابع الأرغن الصائبة.

أو ليس إذن غريباً أن تقبل منه الملاحظات والتوجيه الذي قالت لي من قبل أنها تفضل الاستغناء عنه؟

وكانت دهشتي أشد، وإلى أعظم مما كان ينبغي أن أعترف بهما بيني وبين نفسي، وكنت أفكر في التدخل عندما رأيت جاك يخرج ساعته فجأة ويقول لها:

- حان الآن أن أغادرك، فأبي لن يلبث أن يعود!

ورأيته عندئذ يرفع إلى شفتيه اليد التي تركتها له مستسلمة ثم انصرف ..

وبعد بضع لحظات، هبطت الدرج بلا صوت، وفتحت باب الكنيسة بحيث تستطيع أن تسمع صوت فتحه لتعتقد أني مزمع أن أدخل، وقلت:

– والآن يا جرترود، أمستعدة أنت للرواح؟ هل الأرغن على ما يرام؟

فأجابتني بصوتها الطبيعي جدا:

– نعم. على ما يرام جداً. وقد أحرزت اليوم تقدماً حقيقياً. فغمر فؤادي حزن شديد، بيد أن أحدا منا لم يشر أدنى إشارة إلى هذا الذي رويته الآن.

واستبطأت اللحظة التي انفرد فيها بجاك. وكان من عادة زوجتي وجرترود، والأطفال أن ينسحبوا مبكرين بعد العشاء، كي يتركونا نحن الاثنين فتمتد بنا السهرة في الدراسة الجادة. وكنت أنتظر هذه اللحظة. ولكن عندما ألفيت نفسي على وشك التحدث إليه أحسست قلبي ثقيلا، وخامرتني أحاسيس ومشاعر مضطربة بحيث لم أجرؤ، ولم أعرف، كيف أفاتحه في هذا الموضوع الذي يعذبني ..

وكان هو الذي هتك حجاب الصمت معلنا لي أنه قرر تمضية عطلة الصيف بتمامها معنا .. مع أنه قبل ذلك ببضعة أيام كان قد أفضى إلينا بمشروع رحلة في جبال الألب العليا، وقد وافقت زوجتي كما وافقت أنا على هذا المشروع. وكنت أعلم أن صديقة ت ..، الذي وقع عليه اختياره لصاحبته في تلك الرحلة ينتظره. ولذا بدا لي بكل وضوح أن هذا العدول المفاجئ ليس مقطوع الصلة بذلك المشهد الذي فاجأني في الصباح.

وفي بداية الأمر غمرني شعور بالاستنكار الشديد، بيد أني خشيت إذا ما تركت لنفسي العنان أن ينفلق قلب ابني دوني نهائياً، كما خشيت أيضاً أن أندم فيما بعد على الأقوال المسرفة في حدتها، ولذا بذلت مجهودا كبيرا لضبط نفسي، وقلت له بلهجة اجتهدت أن تبدو طبيعية للغاية:

– كنت أظن أن صديقك ت .. يعتمد على مصاحبتك إياه ..

فأجابني:

– أوه! لم يكن اعتماده على مصاحبتي إياه اعتمادًا مطلقاً، ثم إنه لن يجد عناء في العثور على من يحل محلي. وأنا مستمتع هنا. بالراحة كما لو كنت هناك في تلك البقعة من "الأوبرلند"، وأعتقد بصدق أني مستطيع أن أفيد من وقتي هنا خيرا أعظم من الجري بين الجبال!

فقلت له:

– أنت إذن قد وجدت هنا ما يشغلك؟

فرمقني شأن من يستشف في نبرة صوتي شيئا من التهكم، بيد أنه أردف في غير ارتباك، لأنه لم يستطع أن يدرك دوافع هذه النبرة:

– أنت تعلم أنني كنت دائما أفضل صحبة الكتاب على عصا التسلق.

فقلت له وأنا أرمقه مثبتاً بدوري نظري فيه:

– أجل يا صديقي، ولكن ألا تعتقد أن دروس المصاحبة الموسيقية أشد اجتذابا لك من القراءة؟

ولا شك، أنه أحس بوجهه يحمر، لأنه وضع يده أمام جبينه، شأن من يحمي عينيه من ضوء المصباح، بيد أنه لم يلبث أن تمالك نفسه، وقال بصوت كنت أتمنى لوك ان أقل إيحاء بثقته بنفسه:

– لا تفرط يا أبي في اتهامي. فلم يكن في نيتي أن أخفي عنك شيئاً،

وما أسبقت إلا ببرهة وجيزة ما كنت أتأهب للإفضاء به اليك.

وكان يتكلم بثبات، كمن يقرأ كتابا مفتوحا، متمما عباراته بهدوء شديد فيما يبدو، وكأن الأمر لا يتعلق به. فانتابني تمام الغيظ لتمالكه نفسه هذا التمالك الخارق.

ولما شعر بأنني أوشك أن أقاطعه رفع يده، كمن يريد أن يقول لي: لا! في وسعك أن تتكلم فيما بعد، أما الآن فدعني أولا أتم كلامي. بيد إني قبضت على ذراعه وقلت وأنا أهزه، بصوت صارخ من فرط الآندفاع:

– أنه الأفضل عندي ألا تقع عيناي عليك بعد الآن، فذلك خير من أن اراك تحمل الاضطراب إلى نفس جرترود النقية الطاهرة. ولست بحاجة إلى اعترافاتك.. فإنه لجبن بشع أن تسيء استغلال عاهتها وبراءتها وسذاجتها .. جبن لم أكن لأصدق إنك خليق أن تقدم عليه! وأن تكلمني عنه بهذا الهدوء البغيض!.. اصغ إلى جيداً! إنني مسئول عن رعاية جرترود، ولن أطيق ولو يوماً واحداً بعد الآن أن تكلمها، وتلمسها، وتراها.

فأجابني بلهجته الهادئة نفسها، تلك اللهجة التي أخرجتني عن طوري:

– ولكن صدقني يا أبي أني أحترم جرترود بقدر ما تحترمها أنت شخصيا. وإنك لتخطئ خطأ عجيبا أن خطر لك أنه يداخلني في هذا الشأن أي عامل مذموم، لا في سلوكي معها فحسب، بل ولا في مقصدي أيضاً أو أعماق سريرتي. فأنا أحب جرترود، وأحترمها احتراما يضارع حبي إياها. وإدخال الاضطراب على نفسها، وسوء استغلال براءتها وعماها بفيضان إلى نفسي مثل بغضهما إلى نفسك.

ثم احتج بأن ما يريد أن يكونه بالنسبة لها أن يغدو لها سنداً، وصديقاً، وزوجاً! وأنه لم يعتقد أنه يجب أن يكلمني في هذا الأمر قبل أن يتخذ قراره بالزواج منها. وأن جرترود نفسها لم تعرف بعد هذا القرار، لأنه كان يريد أن يكلمني فيه أولا.

ثم أردف قائلاً:

– وهذا هو الاعتراف الذي كنت أريد أن أفضى به إليك، وليس لدي –صدقني– أي شيء آخر أعترف لك به.

وغمرتني هذه الأقوال بالذهول، وكنت أمع –وأنا أصفي إليه– عروق صدغي تنبض بقوة. ولم أكن أعددت له في ذهني شيئاً سوى التقريع، فلما جردني كلامه من كل سبب للاستنكار صرت كالمأخوذ، حتى إذا وصل إلى ختام أقواله لم أجد لدي من أقوله له. وأخيراً، وبعد فترة صمت غير قصيرة، قلت وقد نهضت واضعا يدي على كتفه:

– هيا بنا إلى النوم، وفي الغد سأقول لك رأيي في هذا كله.

فقال:

– قل لي الآن على الأقل إنك لم تعد حانقا علي.

فأجبته:

– إني بحاجة إلى فترة الليل كي أفكر ..

***

ولما التقيت بجاك في اليوم التالي خيل إلي في الحقيقة أني أنظر اليه

للمرة الأولى. فها هو ابني لم يعد طفلا، بل هو شاب. وكنت إذ اعتبرته لم يزل طفلا أرى ذلك الحب الذي اكتشفته شيئا فظيعا.

وكنت قد قضيت الليل في إقناع نفسي بأنه على العكس من ذلك أمر طبيعي وسوي جدا. فمن أين واتاني الشعور بأن سخطي عليه رد ازداد حدة؟ هذا ما لم يتضح لي إلا بعد ذلك بقليل ..

وفي الوقت نفسه كان علي أن أتحدث الي جاك وأبلغه قراري. وكانت ثمة غريزة لا تقل مضاء عن غريزة الضمير تحثني أنه لابد إلى من الحيلولة دون هذا الزواج بأي ثمن.

وكنت قد أخذت معي جاك إلى أبعد مكان في الحديقة، وهناك سألته أولاً:

– هل أعلنت إلى جرترود مكنون مشاعرك؟

فأجابني:

– كلا. ولكن لعلها تشعر فعلاً بحبي لها، بيد أني لم أعترف لها بذلك قط.

فقلت له:

– عظيم! عليك الآن أن تعدني بألا تكلمها في هذا الأمر.

– أبي! لقد وعدتك أن أطيعك. ولكن أليس من الممكن أن أعرف ما لديك من الأسباب؟

وترددت في الإدلاء إليه بأسبابي، فلم أكن أدري هل تلك الأسباب التي تواردت الأول وهلة على خاطري هي تلك الأسباب التي ينبغي

تقديمها على سواها ، والحق أقول إن الضمير كان مقدما عندي على العقل فيما أملاه علي من سلوك. وأخيرا قلت له:

– إن جرترود لم تزل حديثة السن جدا. وتذكر أنها لم تحظ بمراسم "الاشتراك" الكنسي بعد. وأنت تعلم أنها ليست طفلة وكسائر الأطفال، وا أسفاه! وإن تطورها كان معوقا إلى درجة كبيرة، فلابد أن تكون –بسبب ما لديها من الثقة بغيرها وركونها إليهم– مفرطة الحساسية لأولى كلمات الحب التي يمكن أن تسمعها ولهذا السبب بالضبط ينبغي ألا تقال لها هذه الكلمات. والاستيلاء على من لا يملك الدفاع عن نفسه جبن وخساسة. وأنا أعرف إنك لست هذا الجبان. وأنت تقول أنه ليس في مشاعرك نحوها شيء ذميم. أما أنا فأقول إنها مشاعر آثمة لأنها فجة أو سابقة لأوانها. ومن واجبنا أن نتحلى من أجل جرترود بالحذر الذي لم يتكون لديها بعد. في إذن مسألة ضمير.

ويمتاز جاك بأنه يكفي لكبحه أن تقال له هذه الكلمات البسيطة:

– إني أناشد ضميرك!

وهي عبارة كثيراً ما استخدمتها عندما كان طفلاً. ومع هذا كنت أنظر اليه ويجول بفكري أن جرترود لو أوتيت البصر لما فاتها أن تعجب بهذا الجسم الطويل الأملد، البالغ الاعتدال واللدانة في آن واحد، وبهذا الجبين الوضاح الجميل الخالي من التجاعيد، وبهذه النظرة الصريحة، وهذا الوجه الذي لم يزل طفليا، ولكن يبدو عليه الآن أن سحابة من الجد خيمت عليه فجأة. وكان عاري الرأس، وشعره الأشهب الطويل يتموج بخفة فوق

عارضيه ويكاد يحجب أذنيه.

واستأنفت حديثي إليه وأنا أنهض من المقعد الخشبي الذي كنا جالسين فوقه:

– وثمة شيء آخر أريد أن أطلبه اليك أيضاً.. كانت لديك، كما قلت، نية الرحيل بعد غد، فأرجو ألا تؤجل هذا الرحيل. وكان المفروض أن تظل بعيداً مدى شهر كامل، فأرجو ألا تختصر من هذه المدة يوماً واحداً. مفهوم!

– ليكن يا أبي ما تريد. سأطيعك.

وبدا لي عندئذ أن لونه شحب غاية الشحوب، حتى لقد اختفى الدم من شفتيه. بيد أني أقنعت نفسي أن حبه لا يمكن أن يكون بالغ القوة ما دام اذعانه قد تم بهذه السرعة، وغمرني هذا الاقتناع براحة لا توصف، فقلت له برقة:

– وها أنذا أجد فيك الابن الذي أحببته!

وجذبته نحوي، ووضعت شفتي على جبينه، فبدرت من جانبه إجفاله يسيرة، ولكني لم أشأ أن أتأثر بها.

١٠ مارس

منزلنا من الصغر بحيث نضطر إلى حد ما للمعيشة فيه مكدسين، وهو أمر يضير أحيانا ظروف عملي، وإن كنت قد خصصت في الطابق الأول حجرة صغيرة أستطيع الانسحاب اليها كي استقبل فيها زواري.

وأجد حرجا عندما أريد على الخصوص أن أتحدث إلى أحد من ذوي على حدة من غير أن أضفى على هذا الحديث صبغة رسمية جدا، كما هو الشأن في تلك الحجرة التي أطلق عليها الأطفال –على سبيل المزاح– اسم "الوادي المقدس"، فمن المحظور عليهم دخوله.

ولكن في هذا الصباح بكر جاك بالرحيل إلى نيو شاتل ، حيث ينبغي أن يشتري أحذية لرحلته الجبلية. ولما كان الجو جميلاً جداً فقد خرج الأطفال بعد الغداء مع جرترود التي يقودونها وتقودهم في آن واحد. ويسرني أن ألاحظ في هذا المقام أن شارلوت شديدة التيقظ لها والاهتمام بها " وهكذا وجدت نفسي بصورة طبيعية جدا وحيدا مع زوجتي اميلى في وقت تناول الشاي، الذي نحتسيه دائما في القاعة المشتركة. وكان هذا ما أتمناه، لأني كنت أتعجل الحديث إليها.

وقلما يتفق لي أن أكون معها في خلوة، ولذا شعرت بتهيب، وأدخل على نفسي الاضطراب إحساسي بأهمية ما أريد قوله لها، كأنما الأمر متعلق لا باعترافات جاك، بل باعترافاتي شخصياً. وشعرت كذلك وأنا أهم بالكلام بمدى ما يمكن لكائنين يعيشان على وجه الإجمال حياة واحدة، ومتحابين، أن يظلا "أو يصبحا" وكل منهما لغز منعزل بإزاء صاحبه. ومن شأن الأقوال، في هذه الحالة، سواء تلك الأقوال التي يوجهها أحدنا إلى الآخر، أو تلك التي يوجهها الآخر إلينا، أن تبدو للأسف وكأنها ضربات مجس تنبينا بمقاومة ذلك الحاجز الذي يفصل بيننا، والذي لولا التيقظ لكان خليقاً أن تزداد كثافته بمرور الوقت.

وشرعت أتكلم فقلت لها وهي تصب الشاي:

– لقد حدثني جاك أمس مساء، ثم هذا الصباح عن حبه لجرترود.

وكان ارتعاش صوتي مكافئاً لثبات صوت جاك في حديثه معي بالأمس.

فقالت لي من غير أن تنظر إلي، مواصلة عملها، وكأنني أعلن إليها شيئاً طبيعياً للغاية، أو كأنني لا أنبيها بشيء تجهله.

– لقد أحسن صنعاً بكلامه معك في هذا الشأن.

فواصلت كلامي قائلاً:

– وحدثني عن رغبته في الزواج بها، وقراره ..

فتمتمت وهي تهز كتفيها قليلا.

– كان هذا متوقعاً ..

فقلت لها بشيء من العصبية:

– إذن كنت تشكين في هذا؟

– كان هذا بسبيله إلى الحدوث منذ أمد طويل. ولكن هذا القبيل من الأشياء لا يعرف الرجال كيف يلاحظونه.

ولما كان الاحتجاج في هذا المقام لا طائل تحته، ولعل في ردها السريع شيئا من الحق، لذا اعترضت قائلاً ببساطة:

– في هذه الحالة كان في وسعك أن تنبهيني.

فافترت عن تلك الابتسامة التي ينكمش لها ركن شفتها، وهي الابتسامة التي تصاحب أحيانا رغبتها في التكتم، فهزت رأسها هزة يسيرة وقالت:

- لو وجب إذن أن أنبيك بكل ما لا تعرف كيف تلاحظه، لكان ذلك شيئا يطول شرحه!

فماذا كانت تعني بهذا التعريض؟ هذا ما لم أكن أدريه، وما لم أكن أسعى لمعرفته، فتجاوزته قائلا:

– نهايته! كنت أريد أن أسمع منك رأيك في هذا ..

فتنهدت، ثم قالت:

– أنت تعلم يا صديقي أني لم أقر قط وجود هذه الصبية بيننا. ووجدت عناء في كبح ضيقي إذ رأيتها تعود بهذه الصورة إلى الماضي، وواصلت كلامي قائلاً:

– ليس الأمر متعلقاً الآن بوجود جرترود معنا. بيد ان اميلى استطردت قائلة:

– وكان رأيي دائماً أنه لا يمكن أن يفضي وجودها بيننا إلا إلى متاعب.

ورغبة مني في المصالحة، تشبثت بعبارتها هذه قائلاً:

– أنت إذن تعدين مثل هذا الزواج شيئا مؤسفا. عظيم!

–هذا هو ما كنت أود أن أسمعك تقولينه. ومن محاسن التوفيق أن

نكون في هذا على رأي واحد.

وأضفت إلى هذا، أن جاك أذعن الأسباب التي أفضيت إليه بها عن طيب خاطر، بحيث لم يعد لديها أي داع للقلق في هذا الشأن، وإن الاتفاق تم بيني وبينه على أن ينطلق غداً في تلك الرحلة التي ستستمر شهراً بتمامه.

وختمت ذلك بقولي:

–ولما كنت مهتما مثل اهتمامك بألا يجد جرترود هنا عند عودته، لذا رأيت أن خير ما أصنعه أن أعهد بها إلى الآنسة ي لا "م ..."، حيث يتسنى لي أن أواصل رؤيتها، فأنا لا أخفي عنك أنني مرتبط ازاءها بالتزامات حقيقية. وقد شرعت من قبل في جس نبض هذه الآنسة، التي يسرها أن تفعل ما يرضينا. وهكذا تتخلصين من وجود جرترود" الذي يثقل عليك ويسخطك. وستعنى لويز دى لا"م.. " بجرترود، ولاسيما أنها تبدى سرورا بهذا الترتيب، ويسعدها أن تعطيها دروسا في النغم ..

وبدا على اميلى أنها مصرة على الإخلاد للصمت، فاستطردت:

– ولما كان ينبغي تحاشي ذهاب جاك للاجتماع بجرترود هناك، بعيدا عنا، لذا أعتقد أنه من المستحسن إخبار الآنسة دى لا "م .. " بحقيقة الموقف. أليس هذا رأيك أيضاً؟

وحاولت بهذا الاستفهام أن أحصل من اميلى على كلمة، إلا أنها ظلت مقفلة الشفتين، كأنما قد اقسمت ألا تقول شيئاً، فواصلت الكلام، لا لأنه بقي لدي ما أقوله بعد هذا، بل لأنني لم أطق صمتها:

– ثم لعل جاك سيعود من رحلته هذه وقد شفي من حبه. وهل في مثل سنه يعرف المرء حقيقة رغائبه؟

فقالت أخيرا، بلهجة غريبة:

– اوه! بل إن المرء لا يعرفها دائما بعد هذه السن!

فضايقتني لهجتها الغامضة الوعظية، لأن طبيعتي المسرفة في الصراحة لا تستريح إلى الغموض، فرجوتها أن تشرح ما تضمره بمثل هذا الكلام، فقالت بأسي:

– لا شيء يا صديقي. كل ما هناك أني كنت أفكر فحسب إنك منذ قليل كنت تتمنى أن ينبئك المرء بما لم تتمكن من ملاحظته.

– ثم ماذا؟

– لذا قلت في نفسي أنه ليس من السهل أن يقال لك مالم تلاحظه.

وقد قلت أني أفزع من الغموض، وكذلك أنا –من حيث المبدأ– ورفض التعامل بالتلميحات والتعريض، فقلت لها بلهجة لعلها كانت مسرفة في العنف، بحيث ندمت عليها بعد ذلك، لأني رأيت شفتيها ترتجفان لحظة:

– عندما تريدين لي أن أفهمك، فعليك أن تحاولي الإفصاح عن أفكارك بمزيد من الوضوح!

فأشاحت عني برأسها، ثم نهضت ومشت بضع خطوات مترددة، كالمترنحة في الحجرة، فهتفت بها:.

– اميلى! لم إذا تمضين في تكدير خاطرك، وقد أصلحنا الآن كل شيء؟

وأحسست أن نظرتي تحرجها، فقلت لها وقد أدرت نحوها ظهري، معتمدا بمرفقي على المائدة، وقد أسندت رأسي إلى راحة يدي:

– لقد كلمتك منذ لحظة بقسوة. عفوك إذن.

وعندئذ سمعتها تدنو مني، ثم أحسست أناملها تستقر برفق فوق جبيني، وهي تقول بصوت رقيق حنون يفيض بالدموع:

– يا صديقي المسكين!

ثم غادرت الحجرة على الفور.

***

واتضحت في ذهني بعد قليل عبارات اميلى التي كانت قد بدت إلى غامضة في حينها، وقد ذكرتها هنا على نحو ما بدت لي عندئذ، وفي ذلك اليوم فقط أدركت أنه حان الوقت لرحيل جرترود عنا.

١٢ مارس

كنت قد فرضت على نفسي تخصيص فسحة صغيرة من الوقت لجرترود في كل يوم. وكانت هذه الفسحة من الوقت تتراوح طبقا لمشاغل كل يوم على حدة ما بين بضع ساعات وبضع لحظات.

وفي غداة اليوم الذي جرى فيه هذا الحديث مع اميلى وجدت عندي فراغا كافيا، وكان الجو جميلا يدعو للنزهة، وأخذت جرترود عبر الغابة، إلى

ذلك المنعطف من "الجورا"، حيث تتكشف أمام النظر –من خلال ستار الأغصان– عندما يكون الجو رائقا صحوا، روعة جبال الألب البيضاء، بارزة فوق سحابات الضباب الخفيف.

وكانت الشمس قد شرعت في الانحدار عن شمالنا عندما وصلنا إلى ذلك الموضع الذي تعودنا أن نجلس فيه، حيث تنحدر تحت أقدامنا مروج من العشب القصير الغزير معًا، وعلى مبعدة منا ترعى بضع أبقار، تحمل كل بقرة منها في عنقها ناقوسا صغيرا، على المعهود في تلك القطعان الجبلية.

وقالت جرترود وهي مصغية لصليلها:

– إنها ترسم أبعاد المنظر.

وطلبت إلي، كعادتها في كل نزهة، أن أصف لها الموضع الذي توقفنا عنده، فقلت لها:

– ولكنك تعرفينه من قبل. إنها الحافة التي يرى المرء منها جبال الألب.

– أهي ظاهرة اليوم للنظر تماماً؟

– وظهورا يبرز بهاءها على أتمه.

– سبق لك أن قلت لي أنها تبدو في كل يوم مختلفة بعض الشيء.

– بأي شيء أشبهها لك اليوم؟ بالظمأ في أوج يوم صائف. وقبل حلول هذا المساء تبدو كما لو كانت قد تلاشت في الهواء !

– أريد منك أن تقول لي أتوجد زنابق في المرج الكبير الذي أمامنا ؟

– كلا يا جرترود، فالزنابق لا تنمو في هذه الأعالي، أو على الأقل لا تنمو فيها الأنواع نادرة منها.

– غير تلك التي يدعونها " زنابق الحقل؟ "

– ليست في الحقل زنابق.

– ولا في الحقول المحدقة بنيو شاتل؟

– لا توجد زنابق حقول.

– إذن لماذا يقول لنا السيد المسيح: "انظروا إلى زنابق الحقل؟ "

– لا شك إنها كانت موجودة في زمنه، ما دام قد قال هذا، ولكن الزراعة التي استحدثها البشر قضت عليها.

– أذكر إنك كثيراً ما قلت لي أن أعظم ما تحتاج اليه هذه الأرض هو الإيمان والمحبة. أفلا ترى أن في وسع الإنسان بمزيد من الإيمان أن يراها من جديد؟ أما أنا فأؤكد لك أنني حين أسمع هذه الآية أرى تلك الزنابق. وسأصفها لك. أتريد أن أصفها لك ؟ كأنها أجراس من لهب، أجراس كبيرة لازوردية حافلة بعبير المحبة، تؤرجحها رياح المساء. فلماذا تقول لي إذن أنها غير موجودة أمامنا ؟ إني احسها وأشمها! وأرى المرج حافلا بها.

– إنها ليست أجمل مما ترينها ياجرترود.

– قل لي أنها ليست أقل جمالاً مما أراها.

– إنها في مثل الجمال الذي ترينها به.

فقالت عندئذ مستشهدة بأقوال السيد المسيح في بشارة متى:

– "إني أقول لكم أن سليمان نفسه في أبهى مجده لم يلبس مثل زنبقة منهم".

وبدا لي وأنا أسمع صوتها الرخيم يلقي هذه الآية، أنني أصغى لها لأول مرة.

وعادت تكرر وهي تتأمل الكلمات:

– في أبهى مجده!

ثم ظلت صامتة برهة، فقلت لها:

– لقد قلت لك ياجرترود: إن من لهم عيون هم الذين لا يعرفون كيف ينظرون؟

ومن أعماق فؤادي سمعتني أرفع هذه الضراعة:

– أمجدك يا رب لأنك كشفت للمتواضعين ما حجبته عن الأذكياء.

فهتفت جرترود عندئذ في نشوة عارمة:

– آه لوكنت تدري كيف أتخيل هذا كله في سهولة ويسر! أتحب أن أصف لك المنظر؟ .. هناك، من خلفنا، من فوقنا ومن حولنا، أشجار التنوب، ذات الطعم الراتنجي، والجذع العقيقي، والأغصان الطويلة القاتمة الأفقية التي تئن عندما تحنيها الرياح، وتحت أقدامنا، ككتاب مفتوح فوق منحدر الجبل يمتد المرج الأخضر المتباين الألوان، الذي يضرب في الظل إلى الزرقة، ويغدو ذهبياً في ضوء الشمس. وكلمات هذا الكتاب المتميزة نثار الأزهار المختلفة .. ومنها الجنتيانا وزنابق سليمان الجميلة، وتأتي الأبقار لتتهجى هذه الكلمات بأجراسها، وتأتي الملائكة أيضاً لتطالعها، ما

دامت عيون البشر مغلقة كما تقول. وأسفل الكتاب أرى نهرا عظيما من اللبن الذي يتصاعد منه الدخان والضباب فيغطي هاوية سحيقة من الأسرار. وهو نهر شاسع ليس له شاطئ آخر سوى جبال الألب الجميلة المتألقة الباهرة التي تبدو أمامنا عن بعد .. وإلى هناك سوف يذهب جاك. الأ قل لي:– أراحل هو حقاً إلى هناك غدا؟

– سيرحل غدا.. أقال لك هذا؟

– لم يقله لي، ولكني فهمته ضمنا. أيظل غائبا هناك أمدا طويلا؟

– سيظل هناك شهرا .. وكنت أريد يا جرترود أن أسألك: لماذا لم تذكري لي أنه كان يحضر للقائك في الكنيسة؟

– لقد جاءني هناك مرتين .. أوه! لا أريد أن أخفي عنك شيئا! ولكني خشيت أن أسبب لك ألما.

– بل أنت تؤلمينني بعدم إبلاغي ذلك.

فبحثت يدها عن يدي وقالت:

– كان حزينا لرحيله.

– خبريني يا جرترود .. أقال لك إنه يحبك؟

– لم يقل لي، ولكني أحس هذا من غير حاجة إلى تصريح. وهو لا يحبني بقدر ما تحبني أنت.

– وأنت يا جرترود، أتتألمين لرحيله؟

– بل أحسب من الخير أن يرحل. فلم أستطع مجاوبته.

– ولكن خبريني: أتتألمين لرحيله؟

– أنت تعلم جيداً أنك أنت من أحبه أيها الراعي "القس" .. أوه! لماذا تسحب يدك من يدي؟ ما كنت لأتحدث إليك بهذه الصورة لو لم تكن متزوجاً .. ولكن المرء لا يتزوج مكفوفة. فلماذا إذن لا يمكننا أن نتحاب؟ قل لي أيها الراعي: أو ترى ذلك شراً ؟

– ليس في المحبة شر إطلاقا.

– وأنا لا أحس في قلبي إلا بكل ما هو خير. ولا أود أن أؤلم جاك. لا أود أن أولم أحدا .. لأني لا أريد أن أمنح شيئاً سوى السعادة للجميع.

– كان جاك يفكر في طلب يدك؟

– أتدعني أتحدث إليه قبل رحيله؟ أتمنى أن أفهمه أنه ينبغي أن يتخلى عن حبي. إنك تدرك أيها الراعي إنني لا أستطيع أن أتزوج أحدا. أليس كذلك؟ ستدعني أتحدث اليه، أليس كذلك؟

- ليكن، في هذا المساء.

– كلا. بل غدا، في لحظة رحيله نفسها ..

وكانت الشمس تغرب في بهاء رائع، وكان الهواء دافئا، فنهضنا وسلكنا ونحن مسترسلون في الكلام طريق العودة المعتم.

الكراسة الثانية

٢٥ ابريل

اضطررت لترك هذه الكراسة بعض الوقت ..

لقد ذاب الثلج أخيرا، وبمجرد عودة الطرق سيرتها الأولى، وصار في وسع الناس سلوكها، تحتم على الوفاء بعدد كبير من الالتزامات التي كان قد وجب على تأجيلها طوال الوقت التي ظلت فيه قريتنا حبيسة بالحصار الذي ضربه الثلج عليها. وبالأمس فقط استطعت أن أحظى ببضع لحظات من الفراغ.

وفي الليلة الماضية أعدت تلاوة كل ما كنت قد كتبته هنا ..

واليوم أجرؤ على تسمية شعور قلبي الذي ظل وقتا طويلا جدا غير معترف به باسمه الحقيقي، لا أكاد أتبين أو أفسر كيف أمكن أن أظل حتى وقتنا هذا مخدوعا فيه، وكيف أن أقوالا معينة فاهت بها زوجتي اميلى، ورويتها هنا، بدت لي غامضة، وكيف أمكنني بعد تصريحات جرترود الساذجة أن أظل متشككا في حقيقة أني أحبها.

ذلك أني لم أقبل اطلاقا في ذلك الحين الاعتراف بحب مسموح به خارج رباط الزوجية، وفي الوقت نفسه لم أقبل الاعتراف بوجود أي شائبة من التحريم في الشعور الذي يعطفني بقوة وحرارة نحو جرترود.

وكانت سذاجة اعترافاتها وصراحتها نفسها مبعث طمأنينتي. وكنت

اقول لنفسي: إنها طفلة، ولا يمكن أن يوجد حب حقيقي بدون ارتباك وحمرة خجل. ومن جهتي كنت أقنع نفسي أني أحبها على نحو ما يحب المرء طفلا عاجزا أو معاقا. وكنت أعنى بها كما يعنى المرء بمريض، وحولت الانعطاف والانجذاب إلى التزام خلقي وإلى واجب.

أجل، الحق أنني في ذلك المساء نفسه الذي حدثتني فيه على النحو الذي دونته هنا، شعرت بروحي بالغة الخفة والفرح حتى لقد انخدعت عن أمر نفسي مرة أخرى وأنا أسجل هذه الأقوال. ولما كنت أعتقد أن الحب شيء ذميم، وإن كل ما هو ذميم لابد حتما أن يكون وقراً ثقيلاً تنوء تحته الروح، ولم أشعر حينئذ بأي عبء ترزح تحته روحي، لذا لم أعتقد أن هذا الشعور الذي أحسه هو الحب.

وقد ذكرت هنا هذه الأحاديث التي جرت بيننا لا كما وقعت بتمامها فحسب، بل وكان ذهني خاليا من حقيقة عواطفي وأنا أدونها، فالحق أنني لم أدرك هذه الحقيقة إلا وأنا أعيد في ليلتي هذه قراءة جميع ما دونت.

***

وما إن رحل جاك –الذي كنت قد تركت جرترود تحادثه، بحيث لم يعد إلا في الأيام الأخيرة المتبقية من العطلة، متعمدا تجنب جرترود، أو عدم التحدث إليها إلا أمامي– أقول أنه ما إن رحل جاك في ذلك اليوم البعيد حتى استردت حياتنا سياقها الهادئ جدا. وكانت جرترود - طبقاً لما اتفقنا عليه – قد أقامت لدي الآنسة لويز، حيث كنت أذهب لرؤيتها في كل يوم، بيد أنني –تحسبا من الحب– كنت أتعمد إلا أتحدث معها في أي

موضوع يمكن أن يحرك مشاعرنا. فلم أعد أكلمها إلا بصفتي الراعي "القس"، وغالبا ما يتم هذا في حضور لويز، موجها عنايتي على الخصوص إلى تعليمها الديني، كي أعدها لطقوس "الاشتراك" الكنسي، الذي أقدمت عليها فعلا في عيد القيامة.

وفي يوم عيد القيامة تقدمت أنا أيضاً وتناولت "الاشتراك" الكنسي.

وقد انقضى على هذا خمسة عشر يوما. وأدهشني أن جاك، الذي جاء لتمضية أسبوع من العطلة معنا، لم يصحبني أمام المائدة المقدسة. وكم يؤسفني أن أضطر للقول بأن زوجتي اميلى تخلفت أيضاً عن ذلك لأول مرة منذ زواجنا، وبدا لي أنهما كليهما تواطئاً واتفقت كلمتهما بهذا التخلي عن ذلك الالتقاء المهيب على إلقاء الظلال على فرحتي القلبية.

وهنا أيضاً أسعدني أن جرترود لا تستطيع أن ترى ما يدور حولها، بحيث تسنى لي أن أتحمل وحدي ثقل هذه الظلال.

ولي من معرفتي الثاقبة بزوجتي اميلى ما يجعلني أتبين كل ما ضمنته مسلكها هذا من لوم غير مباشر لي، فلم يحدث منها قط أنها عارضتني معارضة صريحة سافرة، بل تصر على إظهار اعتراضاتها بضرب من العزلة التي تضربها من حولي.

وقد تأثرت جداً الآن حقا من هذا القبيل –على شدة نفوري من النظر في أمره– قد استطاع أن يؤثر في روح اميلى بحيث يحيد بها عن رعاية مصالحها الروحية " الدينية " العليا. وما أإن عدت إلى البيت حتى رحت أصلي من أجلها من أعماق قلبي بإخلاص شديد.

أما امتناع جاك من تناول الشركة المقدسة فكان مرجعه إلى دواع أخرى اتضحت لي من حديث جرى بيني وبينه بعد ذلك بأمد قصير ..

٣ مايو

بسبب اهتمامي بتعليم جرترود أصول الديانة أعدت قراءة الإنجيل بنظرة جديدة. وبذلك أخذت تتضح لي وتبرز أمامي مؤداها أن عدداً من المعاني التي يتكون منها ايماننا المسيحي مصدره أقوال السيد المسيح، بل تعليقات القديس باولس.

وكان هذا بالذات محور المناقشة التي دارت أخيراً بيني وبين جاك. فلأن مزاجه جاف بعض الشيء، لا يمد قلبه تفكيره بغذاء كان، ولذا غدا تقليدياً ودجماطيقياً. وصار يلومني لأنني أختار من العقيدة المسيحية "ما يروقني". بيد إني لا أختار هذا القول أو ذاك من أقوال السيد المسيح، وكل ما هناك أنني حين أجدني بصدد الاختيار بين المسيح والقديس باولس، لا أتردد في اختيار المسيح. أما هو، فخوفا من الوقوع في التقابل بينهما، يأبى أن يفصل أحدهما عن الآخر، ويأبى أن يستشعر بينهما فرقا في الإلهام، ويحتج علي إذا أنا قلت له أنني ها هنا استمع لإنسان، ولكنني هناك أصغي الصوت الله. وكلما أمعن في الجدال زادني اقتناعا بأنه ليس حساسا على الإطلاق للهجة أو النبرة الإلهية الخالصة في أيسر أقوال المسيح.

وإني لأبحث في الإنجيل كله، وعبثاً أبحث، عن وصية، أو نذير، أو وعيد، أو تحريم .. فذلك كله مصدره القديس باولس، وعدم وجود شيء

منه في أقوال السيد المسيح هو بالضبط ما يضيق به جاك. والأرواح التي من قبيل روحه تعتقد أنها ضائعة ضالة عندما لا تجد عن كثب منها الأوصياء والأسوار وحراس المخبولين.

يضاف إلى هذا أن أمثاله لا يتسامحون فيما يجدونه لدى الغير من حرية تنازلوا هم عنها، ويشتهون الحصول عنوة على كل ما يستعد سواهم لمنحهم إياه بدافع المحبة.

وقال لي:

– ولكني أنا أيضاً يا أبي أتمنى سعادة الأرواح والأنفس.

– كلا يا صديقي، بل أنت تتمنى إذعانها وخضوعها.

– ولكن السعادة في الخضوع والإذعان.

وتركت له الكلمة الأخيرة لأنني لا أحب اللجاجة في الجدال، ولكني أعرف تمام المعرفة أن المرء يعرض السعادة للخطر بسعيه للحصول على ما ينبغي، بالعكس، ألا يكون إلا ثمرة للسعادة، وأعرف أيضاً تمام المعرفة أنه إن صح أن النفس المحبة تبتهج بخضوعها الإرادي، فصحيح أيضاً أنه ما من شيء يجافي السعادة ويجانبها مثل الإذعان والخضوع بغير محبة.

ومع ذلك يحسن جاك التفكير والاستدلال وولولا أنه آلمني أن ألفي لدي شاب حديث السن جدا مثله كل هذا الجفاف أو التصلب المذهبي، لكنت خليقاً بلا مراء أن أعجب بجودة حججه وتماسك منطقه.

وإنه ليبدو لي أحياناً كثيرة أنني أكثر منه شباباً، وأنني أصغر سناً مني

بالأمس، وأعددت على نفسي هذه العبارة المقدسة:

– ما لم تصيروا مثل الأطفال الصغار، فلن تدخلوا ملكوت السماء!

أمن الخيانة للمسيح، وتدنيس انجيله، أن نرى فيه على الخصوص منهجا للوصول إلى الحياة المطربة المغبوطة؟ إن حالة الفرح التي تعوقها شكوكنا وقساوة قلوبنا حالة حتمية للمسيحي، فكل كائن قادر على الفرح قدرة متفاوتة، وعلى كل كائن أن يسعى إلى الفرح. وابتسامة جرترود في حد ذاتها تعلمني في هذا الشأن أكثر بكثير مما تعلمها دروسي.

وانتصبت في مواجهتي مضيئة مشرقة كلمة السيد المسيح:

– إن كنتم عمياناً فلن تكون لكم خطيئة.

فالخطيئة هي ما يعتم الروح، وما يضاد الفرح. وسعادة جرترود الكاملة التي تشع من كيانها كله نابعة من أنها لم تعرف الخطيئة قط .. فليس فيها شيء سوى النور أو الوضوح والمحبة.

***

وقد وضعت بين يديها اليقظتين الأناجيل الأربعة، والمزامير، وسفر الرؤيا، ورسائل يوحنا الثلاثة التي تستطيع أن تقرا فيها: "الله نور وليست فيه ظلمة البتة"، وكذلك يمكنها أن تسمع في انجيله صوت المخلص يقول:

– أنا نور العالم، ومن معي لن يسير في الظلمات.

وامتنعت عن اعطائها رسائل باولس، لأنها إن كانت وهي العمياء لا

تعرف الخطيئة البتة، فأي جدوي لإقلاق روحها حين أدعها تقرأ فيها، ضمن رسالته إلى أهل رومية ٧ : ١١.

– الوصية اتخذت من الخطيئة سبيلاً فأغوتني وأماتتني! وما يتلو ذلك من جدل، مهما تكن براعته؟

٨ مايو

حضر الدكتور مارتن بالأمس من "شودى فون"، وفحص عيني جرترود طويلاً بالمنظار الرمدي، وقال لي أنه تحدث في شأن جرترود إلى الدكتور "رو" الأخصائي بلوزان، وسيبلغه بمشاهداته وملاحظاته. وهما يريان أنه من الممكن اجراء جراحة لجرترود، بيد أننا اتفقنا على ألا نفاتحها في شيء من هذا ما لم نصل إلى يقين جازم وسيعود "مارتن" ليخبرني بنتيجة تشاورهما. فما جدوى اذكاء آمال لدى جرترود قد نضطر إلى اخمادها بعد هذا؟

ثم .. أو ليست جرترود سعيدة هكذا؟ ..

١٠ مايو

في عيد القيامة "الفصح" تقابل جاك وجرترود، في حضوري. أو على الأقل رأى جاك جرترود وكلمها، ولكن حديثه إليها لم يتجاوز أموراً لا أهمية لها. وبدا في هذا اللقاء أقل انفعالا مما كنت أخشى. واقتنعت مرة أخرى بأنه لو كان متقد العاطفة حقا لما كان به إياها خليقاً أن يختزل ويقل حجمة بمثل هذا اليسر، وإن كانت جرترود قد صارحته، قبل رحيله في العام المنصرم، بأن هذا الحب ينبغي أن يظل بلا أمل.

ولاحظت أنه يخاطب جرترود الآن بضمير الجمع، وهذا مستحسن بلا شك، ولم أكن قد طلبت ذلك إليه، فسرني أنه أدرك من تلقاء نفسه. ففيه بلا مراء خير كثير.

بيد أني أحسب أن هذا الإذعان من جانب جاك لم يتم له بدون مراعات نفسية وأخذ ورد. ولكن المؤسف في هذا أن القسر الذي فرضه على فؤاده يبدو له الآن خيراً في حد ذاته، ولذا يتمنى أن يراه مفروضاً على الكافة. وقد شعرت بهذا في تلك المناقشة التي جرت أخيراً بيني وبينه، والتي أوردتها آنفا:

أو لم يكن روشفوكو هو القائل أن الذهن كثيراً ما يكون فريسة الخداع القلب؟ .. وغني عن البيان أنني لم أجسر على ابداء هذه الملاحظة لجاك على الفور، لمعرفتي بمزاجه، وإنه من تلك الأمزجة التي لا تزيدها المناقشة إلا اصراراً ولجاجة في الوجهة التي مضت فيها. إلا أني في ذلك المساء نفسه وجدت في رسائل القديس باولس بالذات "فلم يكن بوسعي أن أهزمه إلا بأسلحته" ما أرد به عليه، فعنيت بأن أترك في حجرته قصاصة كان بوسعه أن يقرأ فيها:

– وعلى الذي لا يأكل من كل شيء إلا يدين من يأكل من كل شيء، فإن الله قد تقبله "الرسالة إلى أهل رومية ١٤ : ٣"

وكان في وسعي أيضاً أن أكتب له ما يتلو ذلك من قوله "١٤ : ١٥"

– إني عالم علم اليقين، من الرب يسوع، ألا شيء نجس في حد ذاته،

ولكن من عد شيئاً نجساً كان له نجساً.

ولكني لم أجرؤ على ذلك، لأني خشيت أن يحسبه جاك أنني أكن من نفسي بإزاء جرترود تأويلاً مسيئاً، فهذا ما لا ينبغي أن يخطر إطلاقا بباله. وما أكثر المواضع الأخرى من الكتاب المقدس التي تحتمل معنى مزدوجاً أو ثلاثياً "إن كانت عينك تعثرك ... وتضاعف الخبزات، ومعجزة عرس قانا، وما إلى ذلك)، وليس المجال مجال شحناء ومجادلة، فمغزى هذه الآية واسع وعميق، فالحظر ينبغي ألا يكون محلي من جانب الشريعة، بل من جانب المحبة، ولذا نجد القديس باولس يهتف في أعقاب هذه الآية مباشرة (١٤ : ١٦).

- فإذا احزنت أخاك بتناول طعام، فلست تسلك سبيل المحبة. فالشيطان "الشرير" لا يهاجمنا إلا من جهة نقص المحبة. فيا إلهي! انزع من قلبي كل ما لا ينتمي إلى المحبة .. ذلك أني أخطأت باستثارة جاك، ففي اليوم التالي وجدت على مكتبي القصاصة بعينها التي دونت فيها الآية من رسالة القديس باولس إلى أهل رومية، وقد دون جاك على ظهرها ببساطة تلك الآية الأخرى من نفس الإصحاح "الفصل"

فلا تعرض للهلاك بطعامك من مات المسيح لأجله "١٤ : ١٥" فأعدت بعدها قراءة الإصحاح "الفصل" الرابع عشر مرة أخرى بأسره. إنه منطلق نقاش لا نهاية له. أأنا خليق أن أعتم بهذه الغيوم سماء جرترود المشرقة، وأعذبها بهذه البلبلات؟ ..

أو لست أقرب إلى المسيح عندما أعلمها، وأدعها تعتقد، أن الخطيئة

الوحيدة إنما هي تلك التي تنتقص من سعادة الأخرين، أو تعرقل سعادتنا نحن؟

وا أسفاه! إن بعض النفوس تظل عصية على السعادة بوجه خاص، عاجزة عن تقبلها. وإني أفكر إذ أقول هذا في زوجتي اميلى، فأنا أدعوها للسعادة بلا توقف، وأحضها عليها وأتمنى لو قسرتها عليها. أجل إني أتمنى لو ارتفعت بالجميع إلى الله " ولكنها تتملص من ذلك بلا انقطاع، وتتوارى وتنغلق على نفسها، كتلك الفصائل من الأزهار التي لا تتفتح في ضوء أي شمس .. بل كل ما تراه يثير قلقها ويكربها.

ومنذ أيام قالت لي اميلى:

– وماذا تريد يا صديقي؟ .. إن الله لم يكتب لي أن أكون عمياء! آه!

كم يؤلمني تهكمها، وما أحوجني إلى الفضيلة حتى لا أدع هذا التهكم يثير اضطرابي وينقصني! ولابد أنها تدرك مع هذا – فيما يبدو لي– أن هذا التلميح إلى عاهة جرترود من شأنه أن يجرحني بصفة خاصة. ويشعرني أيضاً بأن ما أعجب به بصفة خاصة لدى جرترود، إنما هو وداعتها التي لا حد لها ، فأنا لم أسمعها قط تبدي أدنى حفيظة ضد الآخرين. والحق أيضاً أنني لا أدعها تعرف شيئاً عما يمكن أن يجرحها.

وكما أن النفس السعيدة تشيع، بما تشعه من المحبة، والسعادة فيما حولها، كذلك كل ما يحيط بأميلي يتحول إلى ظلمة وكآبة. فكأنما تبث روحها اشعاعات سوداء. فعندما أعود مع حلول الظلام، بعد يوم من العناء والكفاح وزيارة الفقراء والمرضى والمكروبين، وقد نال مني الإعياء

أحياناً، وفاض قلبي بالحاجة إلى الراحة والحنان والدفء، عندئذ كثيرا ما لا أجد في بيتي شيئا سوى الهموم والمهاترات ، حتى أني أوثر على هذا كله البرد القارس والريح والمطر في خارجه.

وأعرف جيداً أن خادمتنا العجوز روزالي تتظاهر بأنها لا تتصرف أبداً إلا كما يروقها، ولكنها ليست دائما على خطأ، وكذلك اميلى ليست دائما على حق عندما تريدها على الإذعان لرأيها. وأعرف جيدا أن شارلوت وجاسبار مزعجان جداً، ولكن لا يمكن لإميلي أن تحصل منهما على مزيد من الجهد إذا هي قللت من صياحها وملاحقتها لهما؟ إن كثرة الوصايا والمواعظ، والتوبيخات، تفقدها كل ما لها من تأثير، فتصبح مثل الحصى الملقى على الشطئان ..

فالأطفال أقل إنزعاجاً بها مني. وأنا اعرف أن الصغير كلود يعاني من ظهور أسنانه "أو هذا على الأقل ما تذهب إليه أمه كلما شرع في الصراخ"، ولكن أليست تدعوه إلى الصراخ. كلما هرعت على الفور –هي أو سارة– إليه لهدهدته بلا انقطاع؟ إني لعلى قناعتي بأن صراخه خليق أن يقل توتره لو أنه ترك عدة مرات يصرخ ما شاءت له نفسه أن يصرخ، عندما لا أكون في البيت. ولكني أعلم تمام العلم إنهما تهرعان إليه بصفة خاصة عندما لا أكون موجوداً.

إن سارة تشبه أمها، ولهذا السبب كنت أريد أن ألحقها بالقسم الداخلي في المدرسة، ولكنها –للأسف– لا تشبه إطلاقاً ما كانت عليه أمها وهي في مثل سنها، أي عندما عقدت خطبتنا، بل تشبها في

صورتها التي صيرتها إليها الهموم والحياة المادية، وكدت أقول ما سيرها إليه استزراع هموم الحياة واستنباتها "لأن اميلى تقوم قطعا باستنباتها!"

أجل إني يقيناً أجد عناء في التعرف فيها اليوم على ذلك الملاك الذي كان يبتسم في ذلك الحين ابتهاجا بكل حركة نبيلة تصدر عن فؤادي، والذي كنت أحلم بأن يشاركني حياتي مشاركة لا انفصام فيها، والذي كنت أراه يسبقني ويرشد خطوات نحو النور .. أم لعل الحب في ذلك الحين كان يزيغ بصري ويضللني؟ فأنا لا. اكتشف في سارة الشواغل المبتذلة العامية، فهي على منوال أمها تدع نفسها تهتم وتقلق للهموم الحقيرة دون سواها، وملامح وجهها نفسها، وهي ملامح لا تفيض بالروحانية المنبعثة من أي شعلة داخلية، متجهمة دائما، وكالمتصلبة. وليس لديها أي تذوق للشعر، ولا للقراءة بوجه عام، ولا أقع إطلاقا بينها وبين أمها على حديث يمكن أن أتمنى المشاركة فيه، وأشعر في قربها بآلام العزلة أكثر مما أشعر بها عندما أعتكف في مكتبي، بحيث ازداد تعودي على هذا الاعتكاف في مزيد من الأحيان.

وقد تعودت أيضاً، منذ الخريف، وشجعتني على ذلك سرعة حلول الليل، أن أذهب كلما سمحت لي بهذا دوراتي وطوافي، أي كلما تسنى لي أن أعود مبكرا، فأتناول الشاي لدي الآنسة دى لا " م.. "

وكانت الآنسة دي لا "م .." قد استضافت منذ شهر نوفمبر الماضي مع جرترود ثلاث مكفوفات كان الدكتور مارتن قد اقترح أن يعهد إليها بهن، وتقوم جرترود بتعليمهن القراءة، والأشغال الدقيقة المتباينة، وقد

أظهرت الفتيات الثلاث الصغيرات براعة في هذا كله.

ويا لها من راحة وياله من ترويح لي كلما عدت إلى هذا الجو الدافئ الذي يشيع في تلك الدار "لاجرانج"، وما أعظم ما أحرم منه أن اقتضت الظروف أحيانا أن أظل يومين أو ثلاثة أيام من غير ذهاب إلى هناك.

وغني عن البيان أن الآنسة دي لا "م .." قادرة على ايواء جرترود والفتيات الثلاث الصغيرات، من غير أن يثقل هذا عليها أو يبهظها الإنفاق عليهن. وتساعدها في العناية بهن ثلاث خادمات بكل همة وإخلاص ويجنبنها كل تعب ومشقة. أفيمكن إذن أن يقال إنه ثمة من هو أجدر منها بالجاه والثراء والفراغ؟

ولقد كانت لويز دى لا "م .." مهتمة منذ حداثتها بكل الاهتمام بالفقراء، فهي ذات نفس عميقة التدين، بحيث يبدو عليها أنها تروض نفسها على الحياة في الأرض لا لشيء إلا لهدف المحبة. وبرغم شعرها الذي صار كله تقريباً فضي اللون، والذي تحيط به قلنسوة من الجيبير، لن ترى ابتسامة أكثر طفولية من ابتسامتها، ولا إشارة أشد تناغماً وتناسقاً من إشاراتها، ولا صوتاً أشد موسيقية من صوتها.

وقد اتخذت جرترود أسلوبها في السلوك، وطريقتها في الكلام، ولهجتها، لا في الصوت فحسب، بل في التفكير، وفي الكيان كله أيضاً، وكنت أمازح كلا منهما بشأن هذا التشابه الذي تتعمد ألا تلاحظه أي منهما ..

ولكم كان يطيب لي أن يتاح لي إطالة المكث بعض الشيء بقربهما،

وأن أراهما وقد جلستا متقاربتين، وقد اعتمدت جرترود بجبهتها على كتف صديقتها، أو أسلمت إحدى يديها بين كفي تلك الآنسة، وراحتا تصغيان لي وأنا أقرا لهما شيئاً من أشعار لامرتين، أو هيجو. وكم كان يحلو لي أن أتأمل انعكاس هذه الأشعار على هاتين النفسين الصافيتين!

بل إن التلميذات الصغيرات أنفسهن تتحرك مشاعرهن لهذا الشعر، ذلك أن الأطفال يكتب لهم في جو هذا السلام والمحبة أن ينمو بصورة غريبة وأن يتقدموا بصورة ملحوظة.

وقد ابتسمت في البداية عندما تحدثت الآنسة لويز عن وجوب تعليمهن الرقص، لدواعي الصحة والمتعة معا، بيد أني أعجب اليوم كثيرا بما بلغته حركاتهن الإيقاعية من رشاقة لا يستطعن —واأسفاه— أن يقدرن مداها.

ومع هذا تقنعني لويز دى لا "م .." بأنهن يدركن عن طريق عضلاتهن تناغم حركاتهن التي لا يرينها بعيونهن. وتشترك جرترود في هذه الرقصات برشاقة ساحرة، وهي فضلا عن هذا تجد فيها أعظم متعة. وفي بعض الأحيان كانت لويز دى لا "م .." هي التي تشارك في لعب هؤلاء الصغيرات، على حين تجلس جرترود إلى البيانو.. فتقدمها في العزف مذهل، وهي التي تتولى الآن العزف على الأرغن في الكنيسة كل يوم أحد، وتؤدي ارتجالات قصيرة على سبيل التمهيد للتراتيل.

وتأتي جرترود كل يوم أحد لتناول الغداء معنا، فيتلقاها أطفالي بسرور، رغم اطراد الاختلاف بين أذواقهم وأذواقها. ولم تعد اميلى تبدي

عصبية متطرفة، وهكذا يتم تناول الطعام بغير منغصات. ثم تقوم الأسرة كلها بعد ذلك باصطحاب جرترود إلى دار "لاجرانج"، حيث يتناول الجميع وجبة خفيفة هناك. وأنه عندئذ لحفل حقيقي ينعم به أطفال تتحفهم لويز بالحلوى. بل إن اميلى نفسها تتأثر بحسن رعايتها، وتنبسط أساريرها، وتبدو كمن استردت شبابها. وأعتقد أنها ستجد عناء في التخلص فيما بعد من هذه الوقفة في مسار حياتها المضجر.

١٨ مايو

الآن وقد عادت الأيام ذات الجو الجميل، تسنى لي أن أخرج مع جرترود. وهو ما لم يتيسر لي منذ زمن طويل ،لأنه حدثت أخيرا نوبات سقوط الثلج، بحيث ظلت الطرق حتى الأيام الأخيرة في حالة فظيعة مرهوبة. وكذلك لم يتح لي منذ زمن طويل أن أجد نفسي منفرداً بها.

ومشينا بخطى سريعة، وقد توردت وجنتاها بفعل الهواء المتجدد الطلق الذي كان يبعثر بلا انقطاع شعرها الأشقر على محياها. ولما صرنا بمحاذاة منابت الطحلب التقطت لها بضع أعواد من الخيزران المزهرة، ودسست أعوادها اللدنة تحت قلنسوتها ثم جدلتها مع خصلات شعرها كي أثبتها في مكانها فلا يتلاعب بها الهواء ..

ولم نكن قد تحدثنا بعد في شيء تقريبا، لفرط دهشتنا من وجودنا أخيرا معا بمفردنا، عندما التفتت جرترود نحوي بوجهها، وسألتني فجأة:

– أتعتقد أن جاك لم يزل يحبني؟

فأجبتها على الفور قائلا:

– لقد اتخذ قراره بالتخلي عنك.

فعادت تسألني:

– ولكن أتعتقد أنه يعرف أنك تحبني؟ ..

ومنذ محادثة الصيف الماضي التي سردتها في هذه المذكرات، انقضت "لدهشتي" ستة أشهر لم تذكر فيها أدنى كلمة حب فيما بيننا، ولم نكن ننفرد قط كما قلت، وكان ذلك خيراً ..

وقد جعلت كلمات سؤال جرترود قلبي يدق بشدة، حتى أنني اضطررت إلى الإبطاء في سيرنا بعض الشيء. وهتفت قائلاً :

– ولكن الجميع يا جرترود يعرفون أني أحبك!

ولم ينطل عليها هذا القول ..

– لا. لا. ليس هذا جواب ما سألتك عنه.

وبعد برهة صمت، استطردت خافضة الرأس:

– خالتي اميلى تعرف ذلك، وأنا أعرف أن هذا يحزنها.

فاحتججت على قولها بصوت مضعضع:

– إنها حزينة بدون هذا، فالحزن جزء من مزاجها الخاص ..

فقالت بشيء من نفاد الصبر:

– أوه! إنك تسعى دائماً إلى تطميني. ولكني لا أحرص على الطمأنينة. وثمة أمور كثيرة أعلم إنك لا تعرفني بها، خوفاً من إقلاقي أو

تكدير صفوي أو إيلامي فما أكثر ما لا أعرفه، بحيث أنه أحياناً ..

وغدا صوتها يميل إلى الخفوت باطراد، ثم كفت عن الكلام كمن خانتها أنفاسها. فالتقطت آخر ما تفوهت به وسألتها:

– بحيث انه أحياناً ...

فاستطردت بأسى واضح:

– بحيث إنه أحياناً يبدو لي أن السعادة التي أدين لك بها قائمة على جهلي.

– ولكن يا جرترود ..

- كلا. دعني أقل لك.. إنه لا رغبة لي في سعادة من هذا القبيل. وأعلم إني لا .. إني لا أحرص على السعادة، وأفضل عليها المعرفة، فهناك أمور كثيرة، امور محزنة قطعا، لا أستطيع أن أراها، ولكن ليس من حقك أن تدعني جاهلة بها. وقد أطلت التفكير والروية خلال شهور الشتاء هذه، وصرت أخشى ألا يكون العالم بأسره بمثل هذا الجمال الذي جعلتني أعتقده فيه أيها الراعي، بل هو بعيد عن هذا المستوى من الجمال بعداً كبيراً.

فاعترضت على قولها وأنا أشعر بالخوف، لأن اندفاعات أفكارها أخافتني، وحاولت تحويل تفكيرها عن هذا الاتجاه وأنا أشعر في الوقت نفسه باليأس من نجاح محاولتي:

– أجل إن الإنسان كثيراً ما شوه جمال الأرض وحوله إلى قبح.

ويبدو أنها كانت تنتظر سماع هذه الكلمات من فمي، لأنها انقضت عليها وتشبثت بها وكأنها حلقة تتم بها سلسلة حججها، وصاحت:

– بالضبط! لهذا أريد أن أتأكد من أنني لا أضيف من عندي شيئا إلى ما هو موجود من الشر!

وواصلنا السير بعد ذلك فترة طويلة بخطى سريعة جداً، في صمت. وكل ما كنت خليقا أن أقوله لها كان يرتطم سلفا بما أحس أنها كانت تفكر فيه، فكنت أخشى أن أستثير عبارة قد يتوقف عليها مصير كلينا.

فكرت فيما كان قد قاله لي الدكتور مارتن، من أنه قد يتسنى رد حاسة الإبصار اليها، استولى على قلبي كرب شديد الوطأة ..

وأخيرا استأنفت هي الكلام قائلة:

– كنت أريد أن أوجه إليك سؤالاً، بيد أني لا أدري كيف أصوغه...

وكانت، يقينا، تستنجد بكل ما أوتيت من شجاعة كي تلقي بسؤالها، كما كنت أنا أيضاً أستنجد بكل شجاعتي كي أصغي إليه ولكن أنى لي أن أتبنا بالسؤال الذي يعذبها:

– أيولد أطفال العمياء عميانا بالضرورة؟

ولست أدري على أينا كان هذا الحديث أثقل وطأة وأشد جوراً، أما وقد وجهت سؤالها فقد تعين علينا أن نمضي في هذا الحديث، فقلت لها:

– لا يا جرترود، إلا في حالات خاصة جداً، وليس هناك أي سبب يدعو إلى أن يولدوا عمياناً.

فسري عنها تسرية شديدة. وكنت أريد أن أسألها بدوري لماذا وجهت إلى هذا السؤال، ولكني لم أجد الشجاعة، واستطردت في تعثر:

– ولكن يا جرترود، لابد للمرأة من أن تتزوج كي تنجب أطفالاً ..

– لا تقل هذا أيها الراعي، فأنا أعرف أن هذا غير صحيح.

فقلت لها محتجا:

– إنما قلت لك ما يليق أن أقوله لك .. ولكن قوانين الطبيعة تسمح فعلاً بما تحرمه قوانين البشر وشريعة الله.

– ولكنك كثيرا ما قلت لي أن شريعة الله هي بعينها شريعة الحب.

– إن الحب بذلك المعنى ليس هو الحب الذي يسمى أيضاً الرحمة أو الإحسان.

– أحبك لي إذن على سبيل الرحمة ؟

– تعرفين تمام المعرفة أنه ليس كذلك يا جرترود.

– إذن أنت تعترف بأن حبنا خارج على شريعة الله أو قانونه؟

– ماذا تريدين أن تقولي؟

– أوه! أنت تعرف جيداً ماذا أعني، وما كان ينبغي أن أكون أنا التي تتكلم في هذا الشأن.

وعبثا حاولت أن أروغ، وكان قلبي يدق وأنا أرى حججي تولي الأدبار وتتبدد أشتاتاً .. وفي ذهول هتفت قائلا:

- جرترود.. أترين أن حبك آثم؟

فقالت مصححة:

– بل قل حبنا .. وإني لأقول لنفسي أنه ينبغي أن أراه كذلك.

– إذن؟

وفوجئت بما أحسسته في صوتي من ضراعة، وأردفت هي بلا توقف:

– إلا إني لا أستطيع أن أكف عن حبك.

***

حدث هذا كله بالأمس .. وقد ترددت في كتابته في أول الأمر .. ولم أعد أدري كيف اختتمت النزهة. فقد كنا نسير بخطى متسارعة كأننا نبغي الهرب، وكنت قابضاً على ذراعها مضمومة إلي ضماً شديداً.

وقد غادرت روحي جسمي، بحيث بدا لي أن أهون حصاة على الطريق يمكن أن تلقي بنا متدحرجين على الأرض.

١٩ مايو

عاد مارتن هذا الصباح. من الممكن رد بصر جرترود إليها بجراحة. هذا ما أكده "رو" وطلب أن يعهد إليه بها بعض الوقت. ولا يسعني أن أعارض هذا، ومع ذلك طلبت –بخساسة– فرصة للتفكير، كي أهيئها برفق ..

كان ينبغي أن يثب فؤادي من شدة الفرح، بيد أني أحسه يزداد ثقلاً

تحت وطأة كرب لا يوصف.

إن قلبي لا يطاوعني، بل يخذلني كلما فكرت أنني لابد أن أصارح جرترود بأن بصرها يمكن أن يرتد إليها .

١٩ مايو ليلاً

رأيت جرترود، ولكني لم أكلمها. لم أجد أحداً هذا المساء في "لاجرانج" في الصالون، فصعدت إلى حجرتها. وكنا وحدنا.

لقد ضممتها إلى طويلاً، ولم تبدر منها حركة واحدة للدفاع أو التأبي، ولما رفعت جبينها إلي، التقت شفاهنا ..

٢١ مايو

أمن أجلنا يا رب جعلت الليل عميقا كل هذا العمق، وجميلا كل هذا الجمال؟ أمن أجلي هكذا جعلته؟ الهواء دافئ، ومن نافذتي المفتوحة يدخل ضياء القمر وأسمع سكون السماوات الهائل. يا للعبادة الغامضة التي يذوب فيها قلبي إزاء الخليقة بأسرها، في نشوة خالية من كل كلام. لم أعد أستطيع الصلاة إلا بهيام ووله. وإن كان هناك حد للحب، فهذا الحد ليس منك يا ربي، بل من البشر! ومهما بدا حبي آثما في عيون البشر، قل لي يا رب أنه في عينيك مقدس!

إني أحاول أن أعلو فوق فكرة الخطيئة، ولكن الخطيئة تبدو أي شيئاً لا يطاق، ولا أستطيع البتة التخلي عن المسيح. كلا! لا أقبل أن أرتكب الخطيئة في حبي لجرترود. ولا أستطيع أن أنتزع هذا الحب من قلبي إلا

بانتزاع قلبي نفسه.

ولم هذا؟

لو لم أكن أحبها، لوجب أن أحبها شفقة عليها. والكف عن حبها بمثابة الخيانة لها، لأنها بحاجة إلى حبي ..

ربي! لم أعد أعرف .. لم أعد أعرف سواك .. أرشدني. وإنه ليبدو لي أحيانا إني أغوص في الظلمات، وإن الإبصار الذي سيردونه اليها سينزع مني بصري.

***

عادت جرترود بالأمس إلى مستشفى لوزان، الذي لن تغادره إلا بعد عشرين يوماً. وأنا أنتظر عودتها بمنتهى التوجس، ومارتن هو الذي سيعيدها إلينا. وقد جعلتني أعدها ألا أسعى لرؤيتها حتى ذلك الأوان.

٢٢ مايو

خطاب من مارتن: الجراحة نجحت.

الحمد الله!

٢٤ مايو

إن تفكيري في حتمية رؤيتها إياي، وهي التي ظلت حتى الآن تحبني من غير أن تراني .. هذا التفكير يسبب لي ضيقا لا يطاق.

أتراها ستعرفني؟ ها أنذا للمرة الأولى في حياتي أسأل المرايا في هم

وقلق لا حد لهما. فماذا يصير من أمري أن أحسست أن نظرتها أقل حفاوة بي من قلبها، وأقل حبا؟

ربي! يخيل إلى أحيانا إني بحاجة إلى حبها كي أحبك!

٢٧ مايو

أتاحت لي زيادة في أعمالي تفوق المعتاد أن أقضي هذه الأيام الأخيرة بدون نفاد صبر شديد، وكل مشغلة يمكن أن تنتزعني من نفسي فهي بركة، ولكن صورتها تتعقبني طول النهار، ومن خلال كل شيء.

إنها غدا موعد عودتها. واميلى – التي لم تظهر لي طوال هذا الأسبوع إلا أفضل الجوانب في طبعها ويبدو أنها حرصت على أن تنسيني غيابها – تستعد مع الأطفال للاحتفال بعودتها.

٢٨ مايو

اجتهد جاسبار وشارلوت في قطف ما استطاعا العثور عليه من الأزهار في الغابات والمروج. والعجوز روزالي تقوم بصنع فطيرة هائلة تزينها سارة بما لا أدري من زخارف الورق المذهب. فنحن في انتظار وصولها عند ظهر اليوم.

وأنا أكتب هذه السطور الآن كي استنفد هذا الانتظار، الساعة الآن الحادية عشرة. وفي كل لحظة أرفع رأسي وأرنو صوب الطريق الذي يجب أن تسلكه عربة مارتن عند قدومها، وأكبح نفسي عن الذهاب للقائهما، فالأفضل، ورعاية لإميلي، ألا يكون لقائي لها منفصلاً

قلبي يثب في صدري ..

آه! ها هما قادمان!

٢٨ مساء

يا للظلام المقيت الذي أغوص فيه!

الرحمة يا ربي! الرحمة! إني متنازل عن حبي إياها، ولكنك – سبحانك؟– لا تسمح بموتها!

***

ما كان أخلقني إذن بالخوف! ما الذي صنعته جرترود؟ بل ماذا كانت تريد أن تصنع؟ اميلى وسارة قالتا لي أنهما صحبتاها حتى باب "لاجرانج"، حيث كانت الآنسة دي لا "م .." في انتظارها. لقد أرادت إذن أن تعود للخروج ... فماذا جرى؟

إني أجتهد في تنظيم أفكاري بعض الشيء. والروايات التي قيلت لي غير مفهومة، أو متناقضة. وكل شيء يختلط في رأسي .. فقد أعادها منذ قليل بستاني الآنسة دي لا "م .." فاقدة الوعي إلى "لاجرانج"، ويقول انه رآها تسير بمحاذاة النهر، ثم تعبر قنطرة الحديقة، ثم تنحني، ثم تختفي. ولكنه لم يدرك في البداية أنها سقطت، ولذا لم يسارع إليها كما كان ينبغي. وقد وجدها قرب الهويس الصغير، حيث كان التيار قد حملها إلى هناك.

ولما رأيتها بعد ذلك بقليل، لم تكن قد استردت وعيها بعد، أو على الأصح كانت قد غابت عن وعيها مرة أخرى، لأنها قد ثابت لرشدها لحظة

بفضل ما بذل لها من العناية.

والدكتور مارتن –الذي لم يكن بحمد الله قد رحل بعد– لم يستطع تفسير هذا الضرب من الذهول والخمود اللذين تغوص فيهما جرترود، وكأنها لا تسمع شيئا، أو كأنها فرضت الصمت على نفسها. وتنفسها لم يزل عسيرا، ويخشى مارتن أن تكون مصابة بالتهاب رئوي. لذا وضع لها طبابة خردل وكاسات هواء، ووعد بالعودة لعيادتها غدا.

كان الخطأ الأكبر تركها وقتاً أطول مما ينبغي في ثيابها المبللة، وقد اتجهت كل جهودهم إلى محاولة انعاشها، فماء النهر بارد كالثلج، وتذهب الآنسة دي لا "م .." –وهي الوحيدة التي استطاعت أن تحصل من فمها على بضع كلمات– إلى أنها أرادت أن تقطف بعض الأزهار المعروفة باسم "أذان الفأر"، والتي تنمو بغزارة في هذا الجانب من النهر. ولما كانت لم تزل تفتقر إلى البراعة في قياس المسافات، أو لأنها خالت بساط الأزهار الكافي أرضا صلبة، لذا زلت قدمها فجأة ..

ليتني أستطيع أن أصدق هذا! وأن ما جرى لا يعدو أن يكون حادثاً عارضاً، إذن لارتفع عن كاهل روحي عبء رهيب!

لقد ظلت ابتسامتها الغريبة طوال الغداء البهيج لا تفارقها، ولشد ما أقلقتني. فهي ابتسامة مغتصبة لم أعهدها لديها قط، ولكني اجتهدت أن أقنع نفسي بأنها ابتسامة نظرتها الجديدة.. ابتسامة بدت كما لو كانت تنهمر من عينيها على وجهها كما تنهمر الدموع. وبالقياس اليها كان مرح الآخرين المبتذل يسوئني، فهي لم تشارك في المرح! فكأنما قد اكتشفت سرا

كانت خليقة بلا شك أن تفضي به إلي لو أنني كنت بمفردي معها. ولم تكد تقول شيئا، بيد أننا لم ندهش لذلك، لأن العهد بها أن تكون صامتة في الغالب عندما تكون مع الناس، ولا سيما إذا كان عددهم كبيرًا.

ربي إني أضرع إليك أن تسمح لي بأن أكلمها. فما أحوجني إلى أن أعرف، وإلا فكيف أواصل الحياة؟ .. ولئن كانت قد حاولت مفارقة الحياة، أفكان ذلك لأنها عرفت؟ وماذا عرفت؟ ما الذي عرفته فروعك يا صديقتي؟ ما الذي أخفيته عنك، فلما رأيته فجأة ألفيته مميتاً؟

لقد أمضيت أكثر من ساعتين عند فراشها، لا يفارق طرفي جبينها وخديها الشاحبين وأجفانها الرقيقة المطبقة على أساها الذي لا يحيط به وصف، وشعرها الذي لم يزل مبتلا شبيها بأعشاب الماء، وقد انتشر حولها فوق الوسادة، أتسمع أنفاسها المتقطعة المكروبة .

٢٩ مايو

استدعتني الآنسة لويز هذا الصباح، وأنا أهم بالتوجه إلى "لاجرانج"، فجرترود قد خرجت أخيرا من حالة الخمود بعد أن قضت ليلة تكاد تكون هادئة. وابتسمت لي عندما دخلت الحجرة، وأومأت إلى أن آتي وأجلس على رأس سريرها. ولم أجرؤ أن أسألها، ولاريب في أنها كانت تخشى أسئلتي، لأنها قالت لي على الفور، وكأنها تريد بهذا أن تتجنب كل إفاضة:

– بماذا تسمى تلك الأزهار الصغيرة الزرقاء التي أردت أن أقطفها من فوق صفحة النهر، ولونها بلون السماء؟ إنك أمهر مني، فهل لك أن تصنع لي منها طاقة؟ سأحتفظ بها هناك، بالقرب من فراشي ..

وآلمني المرح المصطنع في صوتها، وقد أدركت هذا بلا شك، لأنها أردفت بمزيد من الجد:

– لا أستطيع أن أتحدث إليك هذا الصباح، لأني مجهدة جدا. اذهب وأقطف لي هذه الأزهار، من فضلك .. وعد بسرعة.

ولما حملت إليها بعد زهاء الساعة طاقة من تلك الأزهار المعروفة باسم "آذان الفأر"، قالت لي الآنسة لويز ان جرترود أخلدت للراحة من جديد، ولن تتسنى لها رؤيتي قبل حلول المساء.

وقد رأيتها هذا المساء، وقد استوت شبه جالسة، متكئة على وسائد مكدسة من خلفها فوق الفراش، وقد تجمع شعرها مضفوراً فوق جبينها مختلطا بالأزهار التي حملتها اليها في الصباح.

وكانت محمومة بلا ريب .. وبدت مكروبة جدا. واحتفظت في يدها الملتهبة باليد التي مددتها اليها، وظللت واقفا أمامها، وقالت:

– لابد لي أن أدلي لك باعتراف أيها الراعي، لأني أخاف الليلة أن أموت. لقد كذبت عليك هذا الصباح .. لم أسقط وأنا اقطف الأزهار .. أتراك تصفح عني إن قلت لك إني أردت أن أقتل نفسي؟

وجثوت على ركبتي قرب سريرها، مع استبقاء يدها الواهنة في يدي، ولكنها خلصتها من قبضتي وشرعت تداعب بها جبيني، على حين دسست في الأغطية وجهي كي أخفي عنها دموعي، وأخمد صوت انتحابي.

وعندئذ أردفت برقة وحنان قائلة:

– أيسوءك هذا جداً؟

ولما وجدتني لا أجيبها بشيء قالت:

– يا صديقي. يا صديقي، ها أنت ذا ترى أنني أحتل مكاناً أكبر مما ينبغي في فؤادك وفي حياتك. وهذا ما بدا لي على الفور عندما عدت إلى قربك، أو تراءى لي على الأقل أن المكان الذي كنت أشغله إنما هو مكان امرأة أخرى، وأن ذلك يسبب لها الحزن والأسى. وجريمتي أني لم أشعر بهذا من قبل، أو على الأقل –لأني كنت أعرف هذا جيداً من قبل– أني تركتك تحبني على كل حال. ولما رأيت وجهها فجأة، ورأيت عليه إمارات كل هذا الحزن والأسى، لم أعد أطيق مجرد التفكير في أن هذا الأسى كله من صنعي... لا. لا.. لا تلم نفسك على شيء، بل دعني أرحل، وأعد أنت اليها البهجة.

وكفت يدها عن مداعبة جبيني، فأمسكت بهذه اليد وغمرتها بالقبلات والدموع، ولكنها خلصتها من قبضتي بنفاد صبر، واستولى عليها كرب جديد.

– ليس هذا ما كنت أريد أن أقول. كلا. ليس هذا ما أريد قوله ..

ورأيت العرق يبلل جبينها، ثم خفضت جفنيها وأبقت عينيها مغلقتين برهة، كأنما تريد أن تستجمع أفكارها وتركزها، أو كأنها تريد أن تستعيد حالة عماها الأولى، وقالت بصوت بدا متراخياً ينم على يأس، ثم لم يلبث أن ارتفع عندما فتحت عينيها، إلى أن بلغ غاية الحيوية والتدفق:

– عندما وهبتموني الإبصار، انفتحت عيناي على عالم أجمل من كل

ما كنت قد حلمت إنه يمكن أن يكون. أجل حقيقة، لم أكن أتخيل النهار بهذه الوضاحة، والهواء بهذا اللمعان، والسماء بهذه الرحابة، ولكن أيضاً لم أكن أتخيل جباه البشر ضخمة العظام على هذا النحو. فهل تدري ماذا بدا لي لأول وهلة عندما دخلت بيتك ..؟ آه لابد مع هذا أن أصارحك بذلك. كان أول ما رأيته خطؤنا. خطيئتنا. كلا! لا تحتج. تذكر قول السيد المسيح: "لو كنتم عمياناً لكنتم بلا خطيئة". أما الآن، فإني أبصر. أنهض أيها الراعي، واجلس هنا بقربي، ولا تقاطعني .. في الفترة التي قضيتها بالمستشفى كنت أقطع الوقت بالقراءة، أو على الأصح جعلتهم يطالعون لي فقرات من التوراة لم يكن لي بها عهد من قبل، لأنك لم تكن قرأتها لي قط. واذكر آية على لسان القديس باولس، ظللت أكررها لنفسي يوما بطوله: "وفيما يتعلق بي، لما كنت من قبل بلا ناموس، كنت أحيا، أما حين جاءت الوصية فقد بعثت الخطيئة حية، أما أنا فمت".

وكانت تتكلم بحماسة بالغة، وبصوت عال جداً، حتى لكأنها تصرخ وهي تنطق بهذه الكلمات الأخيرة، حتى أنني تحرجت خشية أن يسمعها أحد في الخارج، ثم أغمضت عينيها مرة أخرى، وكررت، كأنما تناجي نفسها، تلك الكلمات الأخيرة بما يشبه التمتمة:

- بعثت للخطيئة حية، أما أنا فمت.

وارتجفت أنا، وقد استولت على قلبي برودة الذعر، وأردت أن أحول تفكيرها إلى وجهة أخرى، فسألتها:

– من الذي قرأ لك هذه الآيات؟

فأجابتني وهي تفتح عينيها وترمقني بنظرات نافذة:

– جاك .. اعرفت أنه اعتنق الكثلكة؟

وكان هذا أشد مما يطاق، وهممت أن أتوسل إليها كي تسكت، ولكنها كانت قد استطردت قائلة:

– يا صديقي، سأسبب لك الكثير من الألم، ولكن ينبغي ألا يبقى بيننا شائبة كذب. عندما رأيت جاك أدركت فجأة إنك لم تكن من أحببته، بل كان هو! كان له بالضبط محياك، أعني المحيا الذي تخيلته لك .. آه! لماذا جعلتني أصده؟ كنت خليقة أن أتزوجه.

فهتفت في يأس:

– ولم يزل هذا في وسعك يا جرترود ..

فقالت بحدة بالغة:

– لقد انخرط في سلك الرهبنة ..

ثم أخذت شهقاتها تهزها هزاً وقالت متنهدة:

– آه! كنت أريد أن أعترف له .. وها أنت ترى أنه لم يعد أمامي ما أصنعه سوى أن أموت .. أحس بالظمأ .. ناد من فضلك أحداً، أكاد أختنق. دعني وحدي. آه! كنت آمل أن أجد شيئا من العزاء في كلامي معك. فارقني. لنفترق. لم أعد أطيق أن أراك ..

وتركتها. ناديت الآنسة دي لا "م .." كي تحل محلي بقربها، لأن اضطرابها الشديد ملأني بالخوف الشديد، واقتنعت أن وجودي معها يزيد حالتها خطورة. ورجوت الآنسة أن تبعث إلى من يخبرني أن زادت حالتها

سوءاً .

٣٠ مايو

وأأسفاه! لم يقدر لي أن أراها بعد ذلك إلا نائمة. ففي هذا الصباح، عند شروق الشمس أسلمت الروح، بعد ليلة نزع واعياء. وقد أبلغت الآنسة دي لا "م .." جاك النبأ ببرقية، كطلب جرترود في لحظاتها الأخيرة، فوصل بعد النهاية ببضع ساعات. وقد لامنا بقسوة لأني لم أستدع لها قسيسا كاثوليكيا قبل فوات الأوان. ولكن كيف كان يتسنى لي هذا وأنا أجهل أن جرترود كانت قد غيرت مذهبها أثناء إقامتها في لوزان، بضغط منه ولا ريب. وأخبرني في آن واحد باعتناقه وجرترود الكثلكة، وهكذا فارقني في وقت واحد هذان الكائنان. وبدا إلى أنهما وقد فرقتهما أثناء الحياة قررا الفرار مني معا كي يتحدا في الله ولكني أقول لنفسي أن قرار جاء يدخل فيه عنصر التفكير أكثر مما هو بدافع الحب. فقد قال لي:

– لا يليـــق بي يا أبي أن أتهمـــك، ولكـــن زلتـــك هـــي الـــتي أرشدتني وهدتني.

***

وبعد رحيل جاك، ركعت قرب اميلي، وطلبت إليها أن تصلي من أجلي، لأني بحاجة إلى عونها. فقلت ببساطة: "يا أبانا الذي ..."، بيد أنها جعلت بين الآيات لحظات صمت طويلة ملأناها بالضراعة.

كنت أريد أن أبكي، ولكني أحسست قلبي أشد جدباً من الصحراء.

محاولة حب

(قصة رمزية)

إلى فرنسيس جام ..

"الرغبة أشبه بلهب خاطف للأبصار، وكل ما يمسه يتحول إلى رماد .. إلى تراب خفيف الوزن تكفي لتبديده لفحة هواء هينة .. فخليق بنا ألا نفكر إلا فيما هو خالد".

كالديرون

"الحياة حلم"

ليست كتبنا تصويراً أو سرداً بالغ الصدق لذواتنا، بل هي من باب أولى رغباتنا الشاكية، وتمنينا لحياة أخرى حرمت علينا إلى الأبد ولجميع حركاتنا المستحيلة.

وإني لأكتب ها هنا حلما كان يزعج فكري أكثر مما ينبغي، ويطالب بالخروج إلى حيز الوجود، فقد كنت أريد به لنفسي تفتحا أكمل. كنت آمل أن أكون سعيدا، كأنما لا هم لي سوى السعادة، وكأنما الماضي لا ينتصر علينا دوماً، وكأنما الحياة ليست نسيجاً من تعود ما فيها من أسى، وكأنما الغد ليس امتدادا للأمس، وكأنما روحي لا تصبو اليوم فعلا وتتلفت صوب دراساتها المعتادة، متى تخلصت من حلمها هذا.

فكل كتاب إن هو– بعد– إلا محاولة عملية مؤجلة.

تمهيد

ما من شيء قطعاً خليق أن يحول بيني وبين إدراك ما أشتهي، لا قوانين البشر الثقيلة الوطأة، ولا المخاوف، ولا الحياء، ولا الندم، ولا احترامي لذاتي، ولا أحلامي، ولا أنت أيها الموت الكئيب، ولا الفزع مما وراء القبر .. بل الكبرياء وحدها هي التي تمنعني, الكبرياء إزاء شيء بالغ القوة، فتدعوني أن أكون أقوى منه، وأقهره. بيد أن أفراح مثل هذا النصر المتغطرس ليس أحلى ولا أطيب من الاستسلام لك أيتها الرغبات، بحيث تقهرينني بلا صراع أو مقاومة.

***

عندما أقبل الربيع هذا العام، عذبتني حلاوته، وصيرت الرغبات وحدتي أليمة، فخرجت صبحا إلى الحقول. وظلت الشمس ساطعة طول النهار على السهل المترامي، فمشيت قدما نحو السعادة.

وقلت في نفسي أنه توجد –ولا ريب– أراض أخرى غير هذه المستنقعات القاحلة التي سقت اليها روحي لارتيادها، فحتى إذن يتسنى لي أن أبتعد عن أفكاري الحزينة الواجمة، لأنعم في الشمس مكتمل الأفراح، وأنسي الأمس وأنسى معه العقائد العقيمة، وأعانق السعادة التي ستأتيني عناقا حارا، بلا تحرج، وبلا خوف؟

ولم أستطع أن أعود للبيت ذاك المساء، لما داعب خيالي من المزعجات والمقلقات الجديدة التي لا تطاق ومشيت نحو الغابات، حيث

كانت تضيع فيها أحزاني مراراً كثيرة من قبل.

وجاء الليل، وضوء القمر، وكانت الغابة هادئة ساكنة، وقد امتلأت بظلال رائعة. وارتجفت الرياح، واستيقظت طيور الليل، فدخلت درباً عميقاً كانت رماله تحت قدمي لامعة، فأرشد خطواتي هذا البياض المتواصل. وفيما بين الأغصان المتباعدة، عندما كانت الريح تهز الأشجار، كان المرء يرى طافياً محلقاً فوق ذلك الدرب ضباباً لا تقبض عليه اليد. وعندما خضلت الأنداء أوراق الشجر في منتصف الليل، فاح العبير، وأمست الغابة عاشقة.

وكانت للشجر وسوسة وحفيف، وكل الظلال تتناوح وتصنع إيقاعاً رشيقاً، والأزهار الكبيرة تتراقص، وتتطاير منها حبوب اللقاح، في غبار أخف من الضباب. وسرى تحت الأغصان فرح خفي هدهد روحي، وانتظرت .. وناحت طيور الليل، ثم صمت كل شيء. الطبيعة تستجمع روحها قبل بزوغ الفجر، وهدأت سورة الفرح وذابت وحدتي في الليل الشاحب الأنيس ..

"تراب خفيف تكفي لتبريده لفحة هواء هينة .."

–١–

وجاء الفجر، ومحملا بالأزهار خرج لوقا من الغابة التي لم تزل رهن الظلام، وهو يرتعد شيئاً ما تحت وطأة رطوبة الصباح الباكر، وجلس على صخور ربوة في انتظار شروق الشمس. وكانت تمتد أمام ناظريه مرجة رطبة من الأزهار المتباينة الألوان والماء اللامع الذي يتصاعد منه البخار. طفق

لوقا ينتظر الهناء كله، واثقاً، وهو يخاله سيهبط عليه كما يحط قفير طائر من النحل .. وكان الفجر يرتجف بحبور لا نهائي، والربيع الوليد كأنه ابتسامة الحياة الطلقة. وترددت في الجو أغاني وأناشيد، وبرزت أمامه حلقة من الفتيات.

ورحن وسط العشب الندي، وشعرهن لم يزل مشعثاً من أثر النوم، يقطفن الأزهار، رافعات أذيالهن على هيئة السلال، فبدت أقدامهن عارية وهن يرقصن، ثم لم يلبثن حتى سئمن الرقص، فهبطن إلى قاع المرج، صوب الينابيع كي يغتسلن، وينظرن فيها إلى وجوههن، ويتأهبن لمسرات النهار.

وعندما تفرقن بعد ذلك، نسيت كل واحدة منهن صواحبها.

وعادت راشيل وحدة شاردة اللب، وجمعت الأزهار الساقطة على الأرض، ثم انحنت كمن تهم بقطف غيرها، كي لا ترى لوقا وهو يقترب منها. وجعلت تقطف كل أنواع الزهور النابتة في المروج، وحمل لوقا زهر الكثبان والخزامى البنفسجية. واقترب كثيرا من موضع راشيل، التي كانت حينئذ تجدل الأزهار. وأراد الوقا –ولكنه لم يجر– أن يضم أزهاره إلى الطاقة التي تضفرها راشيل، وفجأة التي بها عند قدميها، وهو يقول:

– هذه أزهار الغابة القاتمة، جمعتها من الظل، لأجلك، عندما برزت لي. وقد لبثت الليل بطوله أبحث عنها. وأنت جميلة كالربيع في هذا العام، وأصغر مني سنا أيضاً. وقد رأيت هذا الصباح قدميك العاريتين، وأنت مع صواحبك، ولم أجسر على الدنو منك، وها أنت هنا وحدك الآن. فخذي أزهاري وتعالي، أرجوك! وليعلم كل منا الآخر الأفراح الساحرة.

وابتسمت راشيل مصغية له باهتمام. وأمسك لوقا بيدها، ومعا عادا أدراجهما .

***

وانقضى النهار في الألعاب والضحكات. ورجع لوقا وحده عند حلول المساء. وجاءه الليل، ولم يواته النوم، وما أكثر ما غادر فراشه وقد اشتد شعوره بالحر، وراح يتمشى في حجرته، أو يطل من نافذته المفتوحة، متمنيا لوكان أشد ش بابا، وأكثر جمالاً، وفي حسبانه أن الحب بين انسانين يستمد بهاءه من جسديهما. وظل لوقا يشتهي راشيل طوال ليلته. وعند بزوغ الصباح أسرع إليها.

وكان درب من الليلق يفضي إلى مسكنها، ثم تتلوه حديقة منة بالورد، مسيجة بسور منخفض ، ولأول وهلة يسمع لوقا صوت راشيل وهي تغني، فظل واقفاً هناك حتى المساء، ثم عاد في اليوم التالي .. وصار يعود إلى هناك كل يوم.. ينطلق إليها منذ يقظته، فيجد راشيل في انتظاره باسمة.

ومرت أيام .. ولوقا لا يتجاسر على شيء، فكانت راشيل البادئة بالاستسلام، وذات صباح لم يجدها ظلال الأشجار المعهودة، فقرر لوقا أن يصعد إلى حجرتها ..

وكانت راشيل جالسة فوق فراشها، وشعرها مشعث، شبه عارية، لا يغطيها إلا شال كاد يسقط كله عنها. وكانت تنتظره قطعاً، وجاء لوقا، وأحمر وجهه، وابتسم، ولكنه عندما رأى ساقيها البديعتين شديدي الرقة، شعر بهشاشتها، فركع أمامها، ولثم قدميها الجميلتين، ثم رد الشال عليها

فسترها به .

وكان لوقا يتمنى الحب، بيد أنه كان يفزع من الوصال الجسدي فزعه من أمر مهلك. فيا للتربية التعسية التي ربيناها، وإنها التربية تجعلنا نحس الشهوة دامية فاجعة أو مبتئسة موحشة، مع انها مجيدة صافية من الاكدار. ولكن لوقا لم يكن هكذا .. فتملك تلك المرأة.

وكيف لي بوصف فرحهما الآن، إلا بوصف ما كانت عليه الطبيعة الجذلانة من حولهما، مشاركة لهما ومسهمة معهما. لم تعد أفكارهما ذات أهمية، فلا هم لهما إلا بأن يكونا سعيدين، فلم تكن أسئلتهما إلا أماني، وما كانت اجاباتها إلا اشباعاً وشفاء غليل. وتعلما أسرار الجسد، وصارت خلواتهما كل يوم متزايدة الخفاء.

وذات مساء، إذ هم بمغادرتها طبقاً لعادته، قالت له:

– لماذا تنصرف؟ إن كان انصرافك لتذهب إلى لقاء حب آخر، فهذا شيء حسن، اذهب اذن، فلست غيري. أما إن لم يكن ذهابك لهذا السبب، فابق. تعال، فمضجعي يدعوك إليه ..

ومنذ ذلك المساء، صار يبقى معها في كل ليلة.

***

وكان الهواء قد غدا أشد دفئا، وأمست الليالي من الجمال بحيث كفا عن اغلاق النافذة، فكانا ينامان هكذا في ضوء القمر. ولما كانت شجرة ورد حافلة بالأزهار تصعد من أرض الحديقة وتحيط بالنافذة، فقد احتبسا

عددا من أغصانها داخل الحجرة، وكانا ينامان بسبب ما يمارسانه من الحب إلى ساعة متأخرة جدا، ويستيقظان يقظة السكارى، وفي جسديهما أثر من ارهاق الليل، فيغتسلان في ماء النبع الصافي، الذي يتدفق في الحديقة. وكان لوقا ينظر إلى راشيل وهي تستحم عارية تحت أوراق الشجر، ثم ينطلقان لنزهاتهما.

وكثيراً ما كانا ينتظران حلول المساء، جالسين في العشب لا يصنعان شيئاً، ويتطلعان إلى الشمس في انحدارها، حتى إذا ما رق النسيم وذهبت الحرارة عادا ببطء إلى مسكنهما. ولم يكن البحر بعيدا. وأثناء حركات المد والجذر القوية أثناء الليل كان يصل إلى أسماعهما لغط الأمواج واهنا. وكانا ينزلان أحيانا إلى الشاطئ عن طريق واد ضيق متعرج، لا يجري فيه ماء، تتعانق فيه الأشجار الشائكة وتسفو فيه الريح الرمال، ثم ينفرج الوادي منفتحا على الشاطئ، فإذا خليج لا زورق فيه ولا سفينة، مع أن البحر فيه هادئ ..

وفي المواجهة تقريبا، على الضفة المتعرجة التي تتراءى على البعد وكأنها جزيرة كان يرى الناظر ما يشبه سياجاً فخما لبستان كبير، وكان هذا السياج يلمع في المساء كأنه الذهب الوهاج ..

وسرعان ما عجزت راشيل عن العثور على محارات في رمال الشاطئ، وانتابهما الملل أمام البحر ..

وغير بعيد من هناك أيضاً كانت توجد قرية، بيد أنهما لم يمرا بها كثيراً بسبب من فيها من الفقراء ..

وحينما يسقط المطر، أو يغلبهما التراخي، لم يكونا يذهبان ولو إلى المرعى، وتستلقي راشيل، ويجلس لوقا عند قدميها، وترجوه ان يحكي لها حكاية، قائلة له:

– تكلم، فإني الآن مصغية لك. ولا تكف عن الكلام ان غفوت. حدثني عن الحدائق في الربيع، وعن مدارجها ورباها العالية ..

***

وحدثها لوقا عن المشارف، وأشجار الكستناء بصفوفها المتلاحقة!

- .. في الصباح تأتي إليها فتيات صغيرات ليلعبن ويرقصن في حلقاتهن، والشمس لم تزل بعد شديدة الانخفاض فوق السهول، فليس للأشجار ظل حينذاك .. وبعد قليل جاءت شابات هادئات فدخلن إلى أحواض الأزهار وأعددن أكاليل وطاقات، مثل التي كنت تضفرينها يا راشيل. وفي الظهيرة حضر أزواج من فتية وفتيات .. وكانت الشمس قد صارت فوق الأشجار، وظللت الدروب قباب الأغصان الملتفة الكثيفة، وكان السائرون هناك لا يتكلمون إلا همساً. وبعد قليل خف الوهج، وبدا السهل كأنما افترشه الصيف وتفشي فيه، فاتكأ هناك المتنزهون مستندين إلى الأسيجة والأفاريز، وجلست جماعات من النساء، وشرع بعضهن يقسمن ثلاث من الصوف تحبكها الأخريات .. وانقضت الساعات. وعند انصراف المدارس حضر التلاميذ، وراح الأطفال يلعبون البلي. وحل المساء، فصار المتنزهون فرادى، وان ظل بعضهم متجمعين، يتحدثون عن اليوم الذي انقضى. وهبطت ظلال المشارف والربى على السهل، وعلى

الطرف الأقصى للأفق، في سماء صافية صحو، طلع القمر بضيائه الرقيق الصافي.

وصمت لوقا ونظر إلى راشيل، التي نامت على لغط ألفاظه ..

وقاما بنزهة أطول، فقد كان الربيع في أخرياته. وبعد أن عبرا التل حيث يقوم بيتهما، وجدا في منتصف المنحدر، من الناحية الأخرى، قناة، يحف بها صف من أشجار الحور، وعلى امتداده درب، تواصل بعده الأرض انحدارها.

وتمكنا من عبور القناة على قنطرة هناك، فدعتهما الشمس الحارقة إلى السير على الضفة. وكانت الحرارة تتصاعد موجاتها من قاع الوادي، وللهواء زفيف فوق الحقول. وعن بعد يبدو طريق عريض، يثور غباره كلما مرت فوقه عجلة، فرأيا الصيف في السهل رأي العين. وكان الدرب، والشجر، والقناة، تتحدى كلها تخوم التل ومنعطفاته، فلزما ضفة القناة. وعلى الضفة الأخرى منها رأيا نهاية غابة صغيرة. وكان هذا كل شيء.

وسارا على هذا النهج فترة طويلة جداً، ولما رأيا الطريق لا يؤذن بانتهاء أبداً، وقد نالا من السير كفايتهما، عادوا أدراجهما.

–٢–

سيدتي:

لك أنت سأروى هذه القصة. فأنت تعلمين أن حبنا أصابه التيه في أرض المستنقعات، وأنت التي شكوت فيما مضى حتى لقد وجدت عناء في

الابتسام. هذه القصة لك، فقد بحثت فيها عما يمنحه الحب، فإن كنت لم أجد فيها إلا السأم، فالخطأ خطئي، فأنت قد أفقتني من الحلم بالسعادة. فما أقصر عمر الفرح في كتاب، وما أسرع ما يروى. وما أشد ابتذال الابتسامة الخالية من الرذيلة ومن السوداوية والأسى، فلننظر في أمر حب الآخرين، ذلك الحب الذي يمنحهم السعادة.

لقد تحابا لوقا وراشيل، وحفاظا على وحدة السرد أقول إنهما م يصنعا شيئًا سوى هذا، فلم يعرفا من السأم أو الملل إلا ملل السعادة نفسه. وكان قطف الأزهار مشغلتهما الوحيدة التي لا تتغير، ولم ينحيا الحب جانبا في سبيل مسعى أبعد من ذلك، وقلما تذوقا لوعة الانتظار. وانهما ليجهلان تلك الحركة التي تبعد عن المرء ما كان يتمني بالذات أن يناله–كما كنا نحن نصنع، واأسفاه!، يا سيدتي– خوفاً من التملك وحباً للأسى والشجن. فكانا يقطفان على الفور الزهرة المشتهاة بأكملها، غير مباليين أن تذبل سريعا في أيديهما الدافئة. وطوبى لمن هم مثلهما يستطيعون أن يحبوا بغير حساب أو وعي. ولم يكادا يشعران بالنصب، فليس الحب ولا الإثم هما المتعبان، بل الندم عليهما هو المتعب. لذا قلما كانا يراجعان على صفحة الماء ماضي أفعالهما العابرة، وكان جهلهما بالحزن هو بعينه ينبوع فرحهما، فلم يكونا يتذكران سوى ما يمكن إعادته من القبلات وعناق الوصال وعندئذ تسنح لهما لحظة تمتزج فيها حياتاهما امتزاجاً حقيقياً. وتلك كانت آونة الانقلاب الصيفي، حيث الجو تام الزرقة، وحيث الأغصان العالية من فوقهما في ذروة رشاقتها ورقتها.

الصيف! الصيف!

ينبغي التغني بهذه الكلمة كما يتغنى بالمزامير.

الساعة الخامسة. وقد نهضت "فها هو الفجر قد لاح" وخرجت إلى الحقول .. ولو علما بكل ما يوجد من الندى الفض فوق العشب، وبعد الماء البارد الذي تغتسل فيه أقدام الصباح المرتجفة، وبالأشعة التي تشرف على الحقول، وبما في السهل المنبسط من نشوة. ولو علما بما يستقبل به الفجر جميع النازلين إلى العشب من البسمات، لما بقيا غارقين في النوم على ما أعتقد ولكن لوقا وراشيل مجهدان من قبلات الليل، وهذا الخمول الغرامي لعله يملأ أحلامهما بابتسامات تربو على ما يفيضه الفجر على الحقول ..

***

ومع هذا خرجا ذات صباح، ووصلا إلى ذلك الوادي وتلك القناة نفسها، اللذين كانا قد سارا على امتدادهما ذات يوم من أيام الربيع، ولكن بدلا من اجتياز التل، دارا موازيين له فبلغا إلى موضع توازي فيه القناة النهر المريض، وكانت القناة تجاور درباً لجر المراكب باللبان، وعبرا الماء على هويس هناك، وسارا في درب جر المراكب، بحيث كانت القناة عن يمين، والنهر عن شمال. وعلى الضفة الأخرى طريق آخر. وكانت هذه الطرق الخمسة تمتد متوازية في الوادي الضيق على مدى بصرهما. وطالت نزهتهما في ذلك النهار.

***

وأرادا أن يريا شاطئ البحر مرة أخرى، فهبطا إليه وجلسا أمام

البحر، وكانت أمواج عاصفة هبت أخيراً قد ألقت على الحصى أصدافاً من أصداف القاع، مع حطام ونتف من أعشاب البحر المنتزعة من أغواره. ولم تزل للأمواج المنتفخة جلبة متصلة مذهلة.

وفجأة أحست راشيل القلق، فقد شعرت بأن لوقا يفكر. وهبت ريح أشد برودة من ذي قبل، فانتابتهما رعدة ونهضاً.

وكان لوقا يمشي في المقدمة، بسرعة فائقة. واجما بعض الشيء. وكانت هناك كتلة متلثمة وسوداء، لعلها كانت وتدا بحريا ما، أو جزءاً من حطام سفينة، أو من أخشاب الجزائر وأمامها وقفا كلاهما ..

وبعد ذلك نظر لوقا إلى البحر، وبدافع الحاجة، أو الغريزة، اتكأت راشيل على لوقا، وأمالت رأسها على كتفه، وقد شعرت شعورا غامضا بالقلق يعتمل في داخله مع التعطش إلى المغامرة. وظلا واقفين، وكانت الشمس بسبيلها إلى الغروب، غائصة في الخليج، فيما وراء المضيق الذي كان خط البحر اللانهائي يرى من بين قممه منساباً كمن يلوذ بالفرار.

وعلى حين كانت الشمس تغوص، كانت أسيجة البستان المجهول، كالقائم على جزيرة، تتلقى الأشعة الغاربة، وتلمع بصورة لا يمكن تفسيرها، وتوشك أن تكون خارقة للطبيعة: أو هكذا على الأقل بدت لهما، حتى أنه لم يقل أحدهما لصاحبه شيئا عن هذا، فكل قضيب من قضب ذلك السياج كانت أشبه في عينهما بالذهب منها بالفولاذ، وكأن لالاءه نابع من ذاته، من صميم معدنه، أو ثمرة من ثمار الإسراف في التلميع.

وأعجبه ما في الأمر أن الناظر يخيل إليه أنه يرى فيما وراء السياج

شيئاً لا يمكنه أن يقول ما هو. وأحس لوقا وراشيل كلاهما أن صاحبه لا يجسر على الحديث عما يشعر به.

وفي طريق العودة وجدت راشيل على الرمل بيضة حبار هائلة سوداء لدنة، على قسط من غرابة الشكل، كأنما هذه الغرابة مقصودة، بحيث وجدا لها من الأهمية لهما ما حفزهما على البحث عن سببها.

***

وتركت ذكرى هذا اليوم في نفسيهما قلقاً غامضاً، وبرغمهما فكرا كثيراً في ذلك البستان المغلق في مواجهة البحر، وألفيا نفسيهما منجذبين إليه، ومتسائلين عنه، ولكن لا سفين تحت يدهما يقلهما إليه، فقررا الانطلاق إليه ذات صباح، متخذين السير بمحاذاة السواحل، إلى أن يصلا إليه.

ونهضا قبل الفجر، وأخذا في السير. وكان الجو لم يزل رمادياً رطباً، فمشيا وكأنهما حاجان جادان: ساكتين، متفكرين، وقد صارت لهما غاية خارج نفسيهما، ش اعرين أمام فضولهما أنهما بصدد مهمة أو رسالة ..

ولكن حسبنا أن نقول هذا عنهما في هذا المقام يا سيدتي، فها هما يروقانا في حالهما هذا الجديد ..

ها هما يسيران غير مباليين حرارة النهار، تقودهما "فكرة"، لأن ما يخالجهما لم يعد مجرد رغبة أو شهوة. ولم تتذمر راشيل من الحصى الذي يتدحرج على امتداد الطريق، ولا من الرمال المتحركة التي كانت تغوص فيها الإقدام .. وراحا يسيران في الحصى حينها، وعبر الحقول حيناً آخر.

وطوراً يصعدان ضفة نهر إلى أن يجدا قنطرة، وطورا آخر يهبطانها، ليعبرا الحقول مرة أخرى.

آه! ها هما أخيراً قد وصلا إلى أقدام السور، وها هو البستان! وللحيلولة دون الاقتراب منه، كانت مياه البحر التي تمد خندقا محفوفا بالصخور يرتطم بأسفل الجدار وكأنها تنغلق شنبه، وقد امتد هذا الجدار على صورة سد أو جسر في البحر، بحيث لا يرى المرء شيئا من هذه الجهة سوى قمة جبرية.

ومضيا قدما، وانتهى الخندق، فمشيا بمحاذاة البحر، وكانت الشمس ثقيلة الوطأة، والطريق يمتد أمامهما ويطول .. في الآونة التي ليس فيها للجدران ظل، وعندئذ رأيا باباً صغيراً متوارياً تقريباً تحت أشجار اللبلاب، واستدار الجدار استدارة غير محسوسة، واستدارت الشمس أيضاً مع اقتراب النهار من ختامه وكأنها تتعقبهما ..

ومن فوق الجدار كانت الأغصان تبدو، ولكن لا حركة فيها.

ومن داخل البستان ترامت إلى أسماعهما أصوات ضحكات متصلة، بيد أن نوافير المياه كثيرا ما تحاكي أصواتها أصداء الكلام. وفجأة ألفيا نفسيهما أمام البحر، فاستولى عليهما اكتئاب شديد، وجلسا قليلا، قبل أن يشرعا في طريق العودة. وأمامهما، وعلى الناحية الأخرى أيضاً ترتفع قمة صخرية وتمتد في البحر، وتكمل الجدار الذي كانت مياه البحر ترتطم بأدناه في خندق لا سبيل إلى اجتيازه. وتغلغلت فيهما الكآبة .. فقد كانا على الخصوص متعبين من الرحلة، وزاد في شعورهما بالتعب أنها تمخضت

عن غير طائل. وكانت الشمس آخذة في التواري وراء البستان، فسارا في ظل الجدار الذي بدا لهما أنه ينطوي على سر غامض. وخيل إليهما أنهما يسمعان في بعض الأحايين دمدمة تشبه النقر بالأصابع على الزجاج، بيد أن هذا الصوت كان يختفي متى توقفا عن السير، فبدا لهما أنه ناجم عن خطوهما ..

وكان الليل قد خيم منذ أمد طويل حين عادا إلى مسكنهما.

***

وفي اليوم التالي، وهما مخلدان إلى الراحة في النهار، قالت راشيل للوقا:

– حدثني عن الفجر في الصيف، ما دام الخمول يمسكني هنا بقربك.

وشرع لوقا يتكلم:

كان الوقت صيفا، قبل بزوغ الفجر، والطيور لم تغرد بعد، ولم تكد الغابة تستيقظ ..

فقالت راشيل:

– أوه! لم تكن غابة، بل كان طريقا رحبا ظليلا .. والفجر يوشك أن يولد .. ولئن كانت الطيور لم تفرد بعد، فلأن الوادي بالغ العمق، والليل لم يزل ملكنا فيه، بيد أن بواكير الضياء كانت تجلو للعين أعالي التلال بيضاء اللون.

واستطرد لوقا قائلاً:

– .. وصوب هذه الأضواء العالية توجه فارسان مغامرين بنفسيهما، صوب الهضبة التي تشرف على ما حولها، بعد أن قضيا الليل بطوله سائرين في الوادي. وكانا صامتين عابسين، بعد أن سارا في الظل أمداً طويلاً، وكانت أشجار البلوط العالية التي تحف بالطريق الواسع من فوقهما تمد أغصانها وجواداهما كانا يصعدان ببطء الطريق المستقيم الوعر الانحدار. وأثناء صعودهما كان الضياء يزداد من حولهما. واتضح النهار على الهضبة التي تحف بالطريق الواسع من فوقهما تمد أغصانها. وجواداهما الأول ويوازي قمة التل.

وتوقف الفارسان عن المسير، وقال أحدهما:

– لنفترق يا أخي، فالطريق الذي يدعو إليه أحدنا لا يدعو الآخر، وشجاعتي الكافية لا حاجة بها للاستعانة بشجاعة، فحيث يكفي أحدنا، يصبح الآخر لا جدوى منه.

فقال الآخر:

– وداعاً يا أخي!

ثم أدار كل منهما ظهره لأخيه، وذهب كل منهما في طريقه سعياً وراء فتوحات فردية. وعندئذ استيقظت الطيور جميعا، وكثرت بينها ممارسات الغرام بين أوراق الشجر، وكثر رفيف الهوام في الهواء، وكثر طنين النحل، وتفتحت بين العشب والأزهار الجديدة التي يمتص النحل رحيقها، وارتفعت في الجو همهمات عذبة. وعن بعد .. حيث تنتهي الرؤية، لم تكن تشاهد

الأوراق أشجار، أما في الوهاد، في الوادي الذي خفت فيه الظلمة، فتتناوح قمم الأشجار الشاهقة، ومن أسفلها يخيم الضباب اوه! لكم يطيب لنا أن ننحني هناك بشدة كي نري الأيائل وهي هابطة لترد الماء! فقالت راشيل:

– والفارسان؟

فقال لوقا:

– آه! لندعهما وشأنهما! ولنشغل أنفسنا بالطريق المشجر؟ لقد حضرت إليه قرب الظهر جماعة من الشابات، كن يسرن متشابكات الأيدي، كما كنت تمشين مع صواحبك .. وكن يضحكن .. ثم أتى رجال يرتدون الحرير والمذهبات، فجلسوا كلهم يتحادثون ..

وانقضى النهار .. فسكتوا، وامتد الظل فوق العشب الأثيث، فنهضوا وذهبوا ليشاهدوا غروب الشمس، وامتلا الطريق المشجر والتملق والهمهمات، وتأهب كل شيء للكرى .. ثم صمت كل شيء. وحل المساء، وأخذت الأغصان تتناوح، وبدت الجذوع الرمادية حافلة في الظل بالأسرار، وارتفع تفريد طائر من طيور الفسق، وعندئذ تراءى في بداية الليل فارسان عائدين، يسير كل منهما نحو الآخر، وقد بدا الكلال على جواديهما، أما هما فكانا منحنيين فوق سرجيهما، وأشد عبوسا مما كانا في الصباح لأن رحلتهما كانت بغير طائل.

ولما تقابلا من غير أن يفوها بكلمة، ثم هبطا الدرب الذي يهبط التل، غائصين في الليل تحت الأغصان.

فقالت راشيل:

– لم إذا الرحيل يا لوقا، وفيم المسير. أو لست كل حياتي؟

فقال لوقا:

– ولكنك يا راشيل لست كل حياتي. فهناك أمور أخرى ..

هذه القصة تسئمني يا سيدتي. وأنت تعرفين أنني ما صغت هذه العبارات النفسي، بل للآخرين. فقد أردت أن أروي علاقة الفصول بالروح. وبهذا تعين علينا أن نصل إلى الخريف، فلست أحسب أن أتخلى عن أي مهمة شرعت فيها.

التقت روحانا ذات يوم، ولأنهما كانا يقطفان الأزهار، أعتقد كل منهما أنهما متشابهان، فأخذ كل منهما بيد صاحبه، وفي حسبانهما أنهما سيتمان الشوط معا. وفرقتهما امتدادات الماضي، فأطلقت يد كل منهما يد ص احبه، لتتم كل روح منهما الطريق وحدها بسبب ذلك الماضي. فراق ضروري هو، لأن الماضي التشابه هو الذي يستطيع وحده أن يجعل النفوس أشباها، فكل شيء مستمر في عالم الأرواح. وكذلك الحال دائما، فهذا أمر تعرفه يا سيدتي، نحن الذين نسير متوازيين ولن نستطيع أن نتدانى.

هكذا إذن افترق لوقا وراشيل، بعد أن امتزجت خطاهما يوماً واحداً، وبرهة واحدة ذات صيف. نقطة تماس واحدة، وها هما الآن ينظر كل منهما في اتجاه مختلف. فلوقا الجالس على الرمال عن كثب من الأمواج، ينظر إلى البحر، أما راشيل فتنتظر ناحية البر. وحاولا، في بعض اللحظات،

أن يستردا الحب الذي تتفكك عراه، بيد أنه كان لذة لا جديد فيها، كان شيئا مستنفدا، وكان لوقا سعيدا وهو يفكر في الرحيل. فراشيل لم تعد تستبقيه. وعندما كانا يخرجان معا كانا يسيران وكل منهما غارق في خواطره، وأكاد أقول تفكيره الخاص، ناظرا إلى الأمام بدلاً من النظر إلى صاحبه.

لوقا لم يعد يحلم بالحب، بيد أن حبهما ترك فيهما ما يشبه ذكرى عذوبة عظيمة، أو ما يشبه عبير الأزهار الجميلة الذابلة ..

هو كل ما تبقى من طاقات الزهر وأكاليله، ولكن بدون أسى. بدون أسى.

وفي بعض الأيام كانا يسيران هكذا، شاردين، بدون كلام ..

وبتأثير الألوان البديعة التي اتخذتها أوراق الخريف، ولها انعكاس رائع الجمال على وجه الماء، صارا يفضلان المياه الراكدة، ويتنزهان ببطء على ضفافها. وكانت الغابات رائعة رنانة بالأصداء، والأوراق بتساقطها كانت تكشف صفحة الأفق. وصار لوقا يكثر من التفكير في الحياة الرحيبة المترامية الأبعاد – وأقول هذا الآن – شخصيا أفكر في هذا، ولذا أحسبه لابد مفكر فيه!

سيدتي!

شد ما يسئمني لوقا وراشيل، فماذا عساي أن أقول لك عنهما بعد؟

لقد أرادا أن يعودا لرؤية البستان ذي الأسيجة الرائعة. وعثرا بالسير ملتزمين الجدار على ذلك الباب الصغير المتواري، الذي كان من قبل مغلقا ، وجداه الآن مفتوحا، فدخلا، فإذا بذلك البستان مهجور ..

وما من شيء يمكن أن يكفي لتصوير بهاء تلك المماشي، فقد نشر الخريف نظام تلك المناطق المعشبة، والأغصان محطمة، وقد غطت الحشائش جميع الدروب، وتفتحت أزهار هذه الحشائش، واستشرى النجيل. ومشيا هناك صامتين، عن كثب من الأيك المثقل بثمار حمراء، وطيور مغردة حمر الأجياد والأطواق ..

لكم أحبا بهاء الخريف!

وكانت هناك أرائك حجرية، وتماثيل، ثم انتصب أمامها بيت كبير، مغلق النوافذ بالمصاريع الخشبية، وأبوابه مسدودة ..

وكانت في البستان بقايا تذكر بأعياد واحتفالات، وقد تدلت من العرائس فواكه تجاوز نضجها الحد ..

ولما بدا المساء يهبط، عادا من حيث أتيا.

***

قالت راشيل:

– قص علي حكاية الخريف ..

فقال لوقا:

– آه! الخريف هو الغابة بأسرها، والبحيرة السمراء قرب الحافة. اليها

تأتي الأيائل، وتدوى أبواق الصيد .. تايوت! تايوت! وينبح سرب الكلاب، فتفر الأيائل.. هيا بنا نتنزه تحت الأشجار الباسقة.. الصيد في أوج نشاطه.. ها هو يمر موكبه. أرأيت الصافنات الجياد؟ صوت البرق يبتعد، ويمعن في الابتعاد وسط الغابات. هيا بنا لنرى البحيرة الهادئة، التي يهبط عليها المساء .. فقالت راشيل:

– قصتك سخيفة .. لم يعد الناس يقولون "الصافنات الجياد" .. وأنا لا أحب الطنطنة. هيا ننام.

وعندئذ تركها لوقا، لأن النعاس لم يراوده بعد.

وبعد أمد قصير كان فراقهما.

وكان وداعاً بلا دموع، وبلا ابتسامات. بل كان هادئاً وطبيعياً!

لأن قصتهما كانت قد وصلت إلى ختامها.

كانا يحلمان بأشياء جديدة .

تعقيب

ها هو الخريف قد جاء يا سيدتي، السماء تمطر، والغابات ميتة، والشتاء في طريقه للقدوم الينا. وأنا أفكر فيك، وروحي متقدة ولكنها هادئة، وأنا جالس هنا قرب النار، وكتبي بقربي. ووحيدا أفكر وأصفى. أترانا نستأنف كذي قبل غرامياتنا الجميلة الحافلة بالأسرار؟ انني س عيد، فأنا أعيش، وتخامرني أفكار سامية.

لقد فرغت من سرد هذه الحكاية التي تسئمنا عليك، وثمة الآن مهام

كبيرة تدعونا اليها. وأعلم أن هناك حالات غرق باهرة مجيدة في خضم الحياة إلاوقيانوسي، وهناك بحارة مفقودون، وجزر ينبغي اكتشافها، بيد اننا نظل عاكفين على كتبنا، وتتجه رغائبنا صوب أعمال أضمن من هذه. واعلم أن هذا ما يجعلنا أسعد من سوانا من البشر.

بيد أنى أشعر أحياناً بالإعياء من الدرس المتواصل أكثر مما ينبغي، فأهبط نحو الغابة، تحت المطر، لأشاهد ختام الخريف. واعلم أنني عند عودتي من هـ ذه النزهة، في بعض الأمسيات، أجلس قرب النار أشبه بالسكران من السعادة بالحياة، وأكاد انتحب من شدة النشوة، شاعرا في أعماق فكري أن أعمالا لها خطرها تهيب بي أن أتمها. سأعمل! سأعمل؟ فأنا أحيا .. وأحب ما نحب هي الأعمال الصامتة.. الشعر، والتاريخ، والدراما .. فهكذا نتجه إلى الحياة .. على نحو ما تصنعين أنت يا أختي في تأملك أو اهتمامك القلق.

والآن أرحل، وعليك أن تحلمي بما تيحه الرحلة من ألوان السعادة..

ومع هذا، كم كنت أحب –وقد أقبل الشتاء– أن نطيل هذا السرد معا، فنرحل وحدنا ذات مساء إلى احدى مدن هولندا، حيث تم الثلوج الشوارع، وهم يكنسون فضول الجليد من فوق القنوات المتجمدة. وهناك كنت تتزحلقين على الثلج طويلا، معي، إلى أن نصل إلى رباض الريف، وبين الحقول كنا نرى الجليد وهو يتكون، وتمتد صفحته البيضاء إلى ما لانهاية .. وما أطيب أن نتنسم الهواء المثلوج.

ويقبل الليل، إلا أن الثلج يلمع فيه .. ونعود أدراجنا. وفي الحجرة

تكونين بقربي، حيث النار مشتعلة في المدفأة، والستائر مسدلة، وتؤنسنا أفكارنا .. وعندئذ تقولين لي يا أختي:

– ما من شيء يخلق به أن يحيد بنا عن طريقنا، فلنعانق الأشياء جميعاً ونمر بها بلا توقف، لأن غايتنا أبعد منها، فينبغي ألا نخدع بها، فهذه الأشياء عابرة تنقضي، أما غايتنا فثابتة، ويجب أن نسير قدما حتى نبلغها.

آه! سحقاً لتلك النفوس البليدة التي تخال العقبات والحوائل غابات! بل إنها ليست حوائل وعقبات، لأنه يجب تخطيطها وتجاوزها!

غايتنا الوحيدة هي "الله"، ولن يغيب ذلك عن أنظارنا، لأننا نراه من خلال كل شيء. ومنذ الآن سنسير إليه قدما، في درب مجيد، مجيد بفضلنا وحدنا، وعن يميننا أعمال الفن، وعن يسارنا مشاهد الطبيعة، ومن أمامنا الطريق الذي ينبغي المضي فيه. ولنكن الآن روحين جميلتين جذلتين، لأن دموعنا وحدها هي التي تنبت الأحزان والأسى من حولنا.

وأنت يا موضوعات رغائبنا وشهواتنا، ما أشبهك بتلك النتوءات السريعة الزوال، التي متى ضغطت عليها الأنامل لم يتبق منها إلا رماد .. لا تلبث أن تذروه الرياح.

***

فانهضي يا رياح أفكاري .. وبددي هذا الرماد .

أندريه جيد

صيف ١٨٩٣

الفهرس